دولة ليبيا
وزارة الثقافة والتنمية المعرفية

مجلة
مركز البحوث والدراسات الأفريقية

اللغة العربية والثقافة الإسلامية في غرب افريقيا

السياسة الأمريكية في القرن الأفريقي التحديات والتحولات

الصراعات المستمرة بين الثقافات الأفريقية كميدان مواجهة والتسلط الإمبريالي

مجلة فصلية
بحثية محكمة تعتني
بدراسات وشؤن
القارة الأفريقية

العدد العاشر

مجلة مركز البحوث والدراسات الأفريقية

مجلة علمية فصلية محكمة تعنى بدراسات وشؤون وقضايا القارة الأفريقية

تصدر عن مركز البحوث والدراسات الأفريقية

المشرف العام: أ. محمد سالم بن سعيد

رئيس التحرير: أ. د فتحي مفتاح ابوصاع

مدير التحرير: أ. عزالدين مختار فكرون

أعضاء هيئة التحرير

د. طه محمد والي

د. عمر إبراهيم المنشاز

د. عبد السلام ولد يحيى

د. ايدير مصطفى اغنيات

د. يحيى عمر القويضي

د. ناصر ساسي الطويري

اللجنة الاستشارية

أ. د مفتاح بلعيد اغويطة (ليبيا)

أ. د محمد المختار جي (السنغال)

أ. د سمير أبو زويتـــــــــة (المغرب)

أ. د عبد القادر التومي (الجزائر)

أ. د الأمين حمزة أبوفارس (ليبيا)

أ. د أمينة العريمى (الإمارات)

أ. د فتحي حسن نصار (فلسطين)

أ. د فتحي محمد أميمه (ليبيا)

أ. د حامد الشريف بركان (أمريكا)

أ. د مارين الكسندر مارينوف (بريطانيا)

الآراء والأفكار الواردة في المجلة تعبر عن آراء

أصحابها...والمجلة ترحب بمناقشة تلك الآراء وإثرائها.

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ۝

من الآية ﴿ 1 ﴾ إلى الآية ﴿ 5 ﴾

من سورة العلق

الفهرس

ر.ت	الموضوع	المؤلف	الصفحة
1	الافتتاحية	أ.د فتحي مفتاح ابوصاع	ه
2	اللغة العربية والثقافة الإسلامية في غرب أفريقيا (السنغال نموذجا)	أ. د . محمد المختار جيي	1
3	السياسة الأمريكية في القرن الأفريقي: التحديات والتحولات	د. محمد عبد الكريم أحمد	10
4	الصراعات المستمرة بين الثقافات الأفريقية كميدان مواجهة والتسلط الامبريالي	أ. د. فتحي حسن نصار أ. عزالدين مختار فكرون أ. محمد سالم محمد سعيد	28
5	واقع وتحديات القوة الناعمة: ليبيا أنموذجا	أ -محمد سالم محمد سعيد	40
6	الآثار الاقتصادية للهجرة غير الشرعية على ليبيا	د. ناصر ساسي الطويري	67
7	الوزير جنيد بن محمد البخاري - حياته وإسهاماته العلمية- 1906 – 1997م	د/ نصر الدين البشير العربي الباحث/ محمد نصر الدين العربي	77
8	الحياة السياسية في فزان دولة أولاد محمد أنموذجاً (1550م-1813م)	د. محمود عبد السلام الدالي د. علي رمضان أبوبكر	89

الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

افريقيا القارة السمراء، فهي من أقدم قارات العالم، تمتلك موارد طبيعية وبشرية تؤهل دولها لمكانة تختلف جذريا عما هي عليه الآن، **وهي** القارة التي تتوسط قارات العالم القديم، وهي ثانية قارات العالم مساحة إذ تبلغ مساحتها حوالي 30 مليون كلم^2. وتملك دولها التي يصل عددها إلى 54 دولة خصائص مشتركة لكنها تختلف اختلافا بينا في المساحة وعدد السكان والموارد الاقتصادية.

اما عن الأصول العرقية لسكان القارة، فيمثل الزنوج غالبية السكان بحوالي 70% ومن بعدهم المغولي، حيث يتواجدون في الجزر الواقعة جنوب شرق القارة، وايضا الجنس القوقازي الذي يتركز في شمال أفريقيا بين العرب والبربر، وكدلك الأقزام وهم السكان الأصليون للجنوب الأفريقي .

مجلة البحوث والدراسات الافريقية مجلة علمية فصلية محكمة *مختصة* بنشر البحوث والدراسات الانسانية الافريقية، *فهي* مجلة منفتحة على مختلف التخصصات التي تتناول الإنسان و المجتمع بوصفهما موضوعين اساسيين.

تصدر المجلة مرة كل ثلاثة أشهر و تتضمن كل اعدادها جملة من الإسهامات التي تشكل ملفا بعينه، كما أنها تترك مجالاً للمقالات و الدراسات التي لا تدخل في إطار الملف الافريقي، و عليه فكل من يريد المشاركة بقراءات نقدية أو بدراسات علمية تخدم القارة ، يجد له فضاءاً في هده المجلة .

نسعى من خلال نشر البحوث العلمية المحكمة في هده المجلة إلى المساهمة في تثمين و تشجيع النشر في مختلف المجالات العلمية والانسانية بغية تغطية النقص في هذا الميدان.

تتضمن المجلة في عددها هدا الأبحاث المنجزة والمحكمة من قبل الباحثين في إطار الاهتمام تاريخيا بأفريقيا القارة الام ، كما تفتح مجالا للباحثين من خارج الوطن ومن افريقيا تحديدا والذين يسعون إلى الكتابة في موضوعات ذات صلة بتاريخ ومستقبل القارة .

مع شكرنا الجزيل الي معالي السيدة وزيرة الثقافة والمجتمع المدني، والي السيد مدير عام المركز، والي كل الباحثين والفريق التقني واعضاء هيئة التحرير واعضاء اللجنة العلمية الاستشارية بالمجلة والي كل من شارك و يشارك من قريب أو من بعيد في انجاز الأعداد السابقة و الأعداد القادمة .

رئيس التحرير

أ. د فتحي ابوصاع

اللغة العربية والثقافة الإسلامية في غرب أفريقيا

(السنغال نموذجا)

■ **أ.د محمد المختار جيي**
رئيس مركز البحوث والدراسات الإفريقية بالسنغال

رئيس الجامعة الاسلامية بمنيسوتا الولايات المتحدة الامريكية فرع السنغال

المقدمة

دخل الإسلام في السنغال بصفة مبكرة وذلك منذ القرن الحادي عشر الميلادي أو قبله عند بعض الباحثين والمؤرخين، وقد رافق الإسلام اللغة العربية في السنغال منذ بداية مسيرته. وقد أثرت اللغة العربية والثقافة الإسلامية في السنغاليين تأثيرا بليغاً، فكانا كصنوين لا يفترقان في الشعب السنغالي، ظهر ذلك في كل مظاهر الحياة الروحية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكان للاحتكاك بين العرب وخاصة الموريتانيين والمغاربة في شمال إفريقيا دور كبير في ذلك، وكذلك التجار والشيوخ، وقد أدى هذا أيضا إلى بروز عدد كبير من الكلمات العربية في اللغات المحلية الإفريقية، وخاصة السنغالية مثل: اللغة الولوفية والفولانية.

وفي هذا البحث نركز على اللغة العربية والثقافة الإسلامية ومدى تأثيرهما في الشعب السنغالي.

أولاً:- ظهور الإسلام في غرب أفريقيا:

تميز عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق بقتال أهل الردة ومانعي الزكاة، فتوطدت أركان الدولة الإسلامية بعد أن كادت تتمزق إثر وفاة النبي، أما في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فقد توسعت دار الإسلام، وامتدت الفتوح إلى مناطق من أفريقيا، ففتح عمرو بن العاص مصر سنة 20 هـ والإسكندرية والرقة سنة 21هـ وطرابلس الغرب سنة 22هـ.

ويروى أن عمرا لما فتح طرابلس كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يقول: "إن الله فتح علينا طرابلس ....وليس بينه وبين أفريقية (تونس) إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل".

ولكن عمر بن الخطاب لم يأذن له، ولما جاء الخليفة عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص عن مصر، وولى عليها عبد الله بن أبي سرح، وأذن له في فتح إفريقية، وفي سنة 50هـ /

760م، دخل عتبة بن نافع الفهري إفريقية، واختط مدينة القيروان، وكانت له ولاية ثانية على إفريقية (62 – 64هـ / 681- 683م)، تابع فيها فتوحه[1].

وذكر ابن عذارى أن عقبة بن نافع نزل من درعة إلى بلاد صنهاجة، ثم إلى بلاد هسكورة، ثم نزل أعمات ورويكة، ثم نزل منها على وادي نفيس، وسار حتى نزل ريجلى بالسوس [2].

وفي بعض الروايات أن عقبة تابع سيره حتى وصل مدينة ولاتة بشرق موريتانيا اليوم، وتدعى يومئذ بـ "بيرو"، وخلف ابنه العات.

وعلى كل فقد تواترت روايات المؤرخين عن حملة سيرها عبيد الله بن الحبحاب والي هشام بن عبد الملك على إفريقية والمغرب لنشر الإسلام وحفر الآبار تمهيدا للطرق في السوس الأقصى وبلاد سوقة.

وقد قاد تلك الحملة سنة 114هـ أو 116هـ حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع، هذه الحملة التي شقّت إلى تخوم السودان.

وعلى مدى قرون من بعده كان الإسلام والثقافة الإسلامية المنساب في أرجاء القارة الإفريقية دون أن تعضدها في كثير من الحالات قوة أو سلطان، كان كذلك اللغة العربية تنتشر بانتشار الناس، وتسلك مسالكهم، وتحل أينما حلو، فيتلقاها الأفارقة بالقبول، وبعثت قوتها بإيمان وإقناع.

وفي القرن الثالث الهجري بدأت قبائل صنهاجة تنظم شأنها، وتحكم أمرها، فاجتمعت حول الأمير تميم اللمتوني، وتحت راية الإسلام، داعية إلى تثبيت أركانه فيما بينها، وإلى نشره فيمن حولها من القبائل البربرية بالصحراء [3].

وفي القرن الرابع الهجري حج الأمير اللمتوني يحيى بن إبراهيم الكدالي، فكان عاقبة حجه خيرا وبركة، فقد بحث عن شيخ فاضل يساعده على تعليم رجال جماعته مبادئ الدين واللغة، فمرّ بالقيروان سنة 426 هـ / 1033م، فلقي بها الفقيه أبا عمران الفاسي، وشكا إليه حال قومه وجهلهم بأصول الدين وتعاليم الشريعة الإسلامية، فكتب له أبو عمران إلى أحد تلاميذه بالسوس، وهو وكاك بن زلو اللمطي، وكان عالما، فوافاه بمقره فانتدب له عبد الله بن ياسين (ت 451 هـ / 1059م)، وهو فقيه، فرافقه إلى قومه، وقد تفرغ هذا الأخير لهداية هؤلاء الناس، لكن العنف الذي كان يستخدمه معهم حولهم عنه، وشعر أنه أخفق في رسالته، وقرر أن يهجر هذا الشعب، ويقصر جهوده على هداية شعوب السودان الإسلامي [4].

ثانياً: تاريخ وصول الإسلام إلى السنغال

لم يتفق الباحثون عن تاريخ دخول الإسلام والثقافة الإسلامية في السنغال بالتحديد، فيرى البعض أن الإسلام دخل السنغال بفضل عبد الله بن ياسين الذي رابط في شبه جزيرة قرب ضفاف نهر السنغال في القرن الحادي عشر الميلادي.

بينما تخبرنا الرواية المتداولة بين السنغاليين أن الإسلام وصل السنغال من تيار جيش عقبة بن نافع، وذلك بدليل أن صحراء لمتونة التي وصلها عقبة مع جيشه أثناء مطاردته للبربر، هي الصحراء المشتركة الآن بين أهالي السنغال وأعراب المغاربة الذين يعيشون كثبان تلك الصحراء قرب ضفاف نهر السنغال.

أما ما يتعلق باللغة العربية فيرى بعض الرواة أنها دخلت السنغال بصفى مبكرة، وذلك بفضل حركة التجار العرب الذين كانوا يرتادون المنطقة، والرواية المشهورة عند المؤرخين أنها تغلغلت تماما في السنغال منذ بداية النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي قبل بداية حركة المرابطين بقليل، وأن أول حاكم مسلم عمل على نشر الإسلام فيما جاور البلاد السنغالية من البلدان، هو وار ديابي (ت 1041م) [5].

ولكن مهما تناقضت الروايات فمن المؤكد أن المرابطين رسخوا جذور الإسلام وثقافته في السنغال، وذلك منذ أن اتخذ عبد الله بن ياسين رباطه في شبه جزيرة بضفاف نهر السنغال، وقضى فيها هو وأصحابه عدة سنوات كاملة (1013 – 1053)، يعلم الأفارقة الدين والثقافة الإسلامية [6].

وقد أثر المرابطون في شعوب السنغال تأثيرا كبيرا، وامتزجوا بهم إلى حد التزاوج والتصاهر، ويذهب بير لابات pére labat إلى أن المرابطين هم الذين نقلوا المحمدية إلى الزنوج، ولهذا كان لهم أثر قوي في هذه الشعوب التي تنظر إليهم كأساتذة وكدين، وتستشيرهم في غالب شأنها [7].

ويرى بول مارتي)أن للصنهاجيين دورا كبيرا وقوى عظيمة في الأراضي السنغالية منذ وصولهم إليها، ويضيف قائلا: وحتى كلمة السنغال التي كنا نطلق عليها على سكان ضفاف النهر قد أخذناها من صنهاجة، أما الاسم الولوفي للمنطقة فهو جولوف)[8].

ويقول فينسان مونتاي أن السنغال أتت من بربرة زناغة Zanaga الذين كانوا يقطنون ضفتها الشمالية [9].

وبذلك فإن المرابطين كان لهم فضل كبير على شعوب السنغال، وبفضلهم أصبح سكان هذه المنطقة مسلمين، وكلن حاكم هذه البلاد وهو وار ديابي أول حاكم زنجي اعتنق الإسلام، وبذلك أصبح الدين الإسلامي رسميا لدى المجتمعات الإفريقية [10].

يقول البكري: "إن أول من حكم هذا الإقليم (يعني: إقليم تكرور)، وأسلم، وعمل على نشر الإسلام فيما حوله من البلدان هو وارجابي توفي حوالي 1041 – 1042م" [11].

وقد تابع أبناء هذا الملك حركة أبيهم في نشر الدعوة الإسلامية، وعندما انقسمت حركة المرابطين إلى قسمين: شمالي وجنوبي، كان التتار صوب الجناح الجنوبي الذي قاده أبو بكر بن عمر، وغزا به غرب أفريقيا، وكان لبي Labé ابن وار جابي وجنوده الركيزة الأساسية في الانتصار على دولة غانا الوثنية وأسلمتها.

- **دراسة طرق وصول اللغة العربية والثقافة الإسلامية إلى السنغال**

إن الطرق التي شقتها اللغة العربية للوصول إلى السنغال لم يرتبط بخطوط رسمية مضبوطة، بل اندفعت إلى الناس في القرى والمدن والأرياف هنا وهناك، إلا أنه يمكن القول إن هناك بعض الطرق وروافد عربها الإسلام.

وقد كانت من أهم تلك القنوات:

قناة القيروان: فقد كانت القيروان منذ القرن الأول الهجري مركزا ثقافيا دينيا، وقد مزدحما بطلبة العلم والدعاة، ومما يدل على أهمية القيروان هو أن يحيى بن إبراهيم زعيم قبيلة حبالة، ومنشئ دولة المرابطين عندما أحس بالتزامه بخدمة الإسلام، وإنقاذ الزنوج والبربر من ظلام الوثنية والجهل، ذهب إلى القيروان حيث قابل أحد علمائها، وهو أبو عمران الفاسي، وتلقى عنه ألوانا من الفكر والفقه، ثم ذكر له أنه يريد أن ينقل إلى قومه في الجنوب ثقافة القيروان الدينية، وقد أحاله أبو عمران إلى تلميذه، فقيه سوس، وحاج اللمتوني، فاختار له وحاج تاميذه عبد الله بن ياسين الذي قام بدور كبير لإنشاء دولة المرابطين، وهكذا انبعث من القيروان شعاع إلى الجنوب وصولا إلى السنغال، وفي بعد التحق كثير من الأفارقة لتلقي اللغة العربية والعلوم الإسلامية في القيروان، ثم تخرجوا هناك وأصبحوا كوادر في بلادهم الأصلية.

قناة تلمسان بالجزائر: وبالتحديد من مدينة توات tawat حيث عبرت عنها إلى ما وراء الصحراء عن يد مهاجرين منذ القرن الخامس الميلادي، وهذه المنطقة (توات) واحة في النصف الغربي من الصحراء الجزائرية، وقد اتحدد من ولاية ولاتة أهل مركز الطريقتين، ولكن

إحضارهم فيما بعد لجأوا إلى تمبكتو التي كانت مركزا ثقافيا علميا دينيا، يجتمع بها العلماء والمثقفون.

قناة فاس: قد لعبت هذه القناة دورا كبيرا في نشر الثقافة الإسلامية في السنغال، وقد مر بها التصوف وخاصة التجانية التي أشعل فعبر الأحبار فإن هناك عناصر من علماء فاس ومراكش الذين كانوا يترددون كثيرا إلى موريتانيا، ويعملون هم وتلاميذهم وسطا القرى لنقل اللغة العربية والقيم الإسلامية إلى سكان الجنوب.

ومن قيمة هذا العطاء أن هؤلاء العلماء كانوا يجمعون بين العلم والحماس لنشر الإسلام في أقطار الوثنيين.

قناة شنقيط : وقد ساهمت هذه القناة مساهمة كبيرة في وصول اللغة العربية والثقافة الإسلامية إلى السنغال، كما ساهمت في تكوين ملامح الثقافة العربية الإسلامية، إذ كان جل اعتماد المدارس والكتاتيب والمحاضر في بث المعارف والعلوم العربية على أكتاف العلماء والدعاة الشناقطة.

وتاريخيا ربطت شنقيط وبلاد السنغال رابطة عميقة الجذور قبل الإسلام، وذلك بحكم الجوار، ولما جاء الإسلام توطدت أواصر العلاقة بينهما، وكان العلماء الشناقطة يجوبون بلاد السنغال ويستوطنونها عبر العصور والأزمان.

فقد كان لعلماء الصحراء ومشائخها في كل العهود القديمة والحديثة دور متميز في نقل اللغة العربية والإشعاع الثقافي والفكر الإسلامي إلى شعوب السنغال، وشرب علماء سنغاليون في المدارس الشنقيطية، فقد تلقى عبد القادر كان زعيم أئمة فوتا العلم لدى مرابطة شنقيطية، هي الشيخة خديجة بنت العاقل، ومن الواضح أن تأثير جماعة أدوعلي الشنقيطية، كان أكثر وضوحا وبروزا على شعوب السنغال، إذ هاجرت هذه الحاجة إلى البلاد السنغالية، واستوطنت فيها، فعن أدوعلي أخذ أكثر علماء السنغال، فقد أخذ الحاج عمر الفوتي العلم والتجانية عن سيدي مولود فال، كما قام الحاج مالك سي بدراساته العليا عن هذه الجماعة، وكان يرسل أتباعه لإتمام دراساتهم إليها[12] .

فقد كان الاتصال المباشر بين السنغاليين والموريتانيين واختلاطهم لأجل الدين والعلم والتجارة سببا في تغلغل اللغة العربية والثقافة الإسلامية.

ثالثاً: دور الشيوخ في إرساء الإسلام والثقافة العربية

إن الحقيقة التاريخية التي لا يستطيع دارس تاريخ أفريقيا ان ينكرها هو دور الشيوخ في القارة الإفريقية وما قاموا به من أدوار بارزة في نشر اللغة والثقافة العربية الإسلامية في غرب أفريقيا بصفة خاصة وفي القارة الإفريقية بصفة عامة .

ويبدو انه لا يمكن فهم تاريخ أفريقيا وخصوصا في العصر الحديث دون التعرف على المتصوفين ومقاومة بعضهم للمستعمر، ونشر اللغة العربية، فقد كان للشيوخ دور جلي وواضح في نشر اللغة وبناء العديد من المدارس العربية والكتاتيب والمحاضر.

ويرى بعض الباحثين أن الثقافة الإسلامية ظهرت في مناطق كثيرة في القارة الإفريقية من خلال جهود زعماء التصوف والشيوخ الذين تصدوا للمجتمعات الوثنية، وقاموا بنشرها بين أقوام وثنيين جاهلين، وبين حكام متعنتين حاربوا هذه الثقافة.

وبفضل هؤلاء انتشرت الثقافة الإسلامية في مجتمعات الصحراء الكبرى وكان للزوايا القادرية الدور الأكبر في القارة الإفريقية، كما كانت للسنوسية والشاذلية مساهمات في ذلك .

ومنذ قيام دولة غانا ومالي وصنغاي فقد قام الشيوخ الأفارقة بنشر الإسلام وثقافته، فقد كان شيوخ تمبكتو من أكبر الشيوخ الذين نشروا اللغة العربية والثقافة الإسلامية في غرب أفريقيا.

كما أنه عند القرن التاسع عشر ظهر شيوخ آخرون قاموا بنشر الثقافة الإسلامية منهم عثمان دام فودي الذي نشر الإسلام في بلاد هاوسا، وكان لجهوده خمسة عشر عاما من الكفاح والنضال دور لتأسيس دولة إسلامية قوية، مارست كل النظم الإسلامية في كل منحى من مناحي حياتها وقد كانت تتعرض فيه الدولة العثمانية إلى ضربات الأمم المسيحية، فكانت خير عون لنشر الدين.

وقد ظهرت في بلاد تكرور شيوخ تحملوا أعباء الثقافة الإسلامية ثم نشرها، وكان منهم شيوخ فوتا، مثل: سليمان بال، وعبد القادر، والحاج عمر، وكان هؤلاء أول من طبق الحكومة الإسلامية في الدولة السنغالية، واستعمل اللغة العربية في إداراتهم.

وكذلك الحاج عمر تال ناشر الطريقة التجانية في غرب أفريقيا فقد كان للحاج عمر دور كبير في نشر اللغة والثقافة، فقد ترك العديد من المصنفات والمؤلفات باللغة العربية.

ولقد قامت الشيوخ المسلمون المتصوفون في القارة الإفريقية بدور ثقافي لا يمكن تجاهله أو إنكاره بالرغم من الكثير من الضغوطات فقد قام الشيخ أحمد باه والحاج مالك وأحمد بامبا وإبراهيم نياس وغيرهم بدور كبير في نشر الإسلام في السنغال و الثقافة العربية في البلاد السنغالية

وإلى جانب عثمان دام فوجو وأخيه عبد الله والحاج عمر الفوتي فقد تركوا مدونات عديدة في اللغة العربية وآدابها وكذلك الحاج مالك سي، والشيخ أحمد بامبا، والحاج إبراهيم نياس، والخليفة محمد نياس، وغيرهم من العلماء الذين أسهموا في إثراء المكتبة العربية الإسلامية بمؤلفاتهم ومدوناتهم.

رابعاً: أهم مراكز اللغة العربية القديمة في السنغال

يبدو أنه بعد ظهور الإسلام في السنغال ظهرت مراكز تعليمية هامة لنشر الإسلام وثقافته، وكان من أهمها:

جامعة بير:

وكانت جامعة شعبية تقليدية دينية عريقة لعبت دورا رياديا في نشر شعاع اللغة والثقافة والعلم، ويرى أحد الباحثين أن تأسيس أول جامعة إسلامية بالمعنى الصحيح على التراب السنغالي هي جامعة بير الإسلامية التي تم تأسيسها من القاضي عمر فال [13].

ويرى الأستاذ محمد جوب أن الشيخ عمر فال قام بتأسيس جامعة بير، وذلك بعد عودته من شنقيط، وقد يعلم في هذه المنطقة القرآن ومبادئ اللغة وعلوم الرسم، وقد شاء القدر أن اشتهر هذا الشيخ وأصبح الناس يفدون إليه من نواح بعيدة لحضور جلساته العلمية، وخاصة مجلس تفسير القرآن الكريم، وكان عندما يسأل أحدهم: إلى أين أنت ذاهب؟ يجيب قائلا: إلى بِرِمَا، يعني: مجلس التفسير، من هنا جاءت تسمية منطقة بير ببير [14].

وقد ظلت هذه الجامعة مدة طويلة مركزا ثقافيا دينيا، ينير العقول والأذهان، وتعمل على نشر الثقافة العربية الإسلامية الاستعمار الفرنسي، فقد عمد الجنرال فيدربه إلى إحراق الجامعة والمدينة في عهده سنة 1864م.

جامعة كوكي العريقة:

وهي أيضا جامعة إسلامية شعبية عريقة لعبت دورا في الإشعاع الديني والفكري، وقد تم تأسيسها على يد مختار اندومب جوب.

وإضافة إلى هذه المدرسة العلمية نجد أيضا في فوتا مدارس دينية وعلمية، لا تقل أهمية عن جامعتي بير وكوكي، مثل: مدرسة بوغي وغجلين [15].

والجدير بالذكر أن هذه المراكز والمدارس كانت أصيلة وذات صفة تقليدية.

المعاهد والمدارس الحديثة في السنغال:

منذ الخمسينات او قبلها بقليل ظهرت مدارس ومعاهد حديثة ذات مناهج معاصرة وذلك بعد ما رحل بعض المستعربين إلى العالم الإسلامي لتلقي العلوم الإسلامية واللغة العربية وآدابها

، وبعد عودتهم إلى بلدانهم الأصلية أسسوا معاهد ومدارس نظامية، على أن المدارس العربية القديمة كانت ذات صبغة أصيلة، فكانت مناهجها وطرق تدريسها تقليدية، وعند رجوع هؤلاء المستعربين الجدد من الجامعات الإسلامية كالأزهر والزيتونة والقرويين والمملكة العربية السعودية وليبيا أحدثوا تطورات جديدة في نظام التعليم العربي ومناهجه، وكان من أبرز هذه المؤسسات التعليمية ذات الصفة الحديثة: معهد الفلاح، مركز التعليم الإسلامي ابن تيمية، معهد الشيخ الحاج عبد الله انياس بكاولاخ، معهد الأزهر للشيخ مرتضى امباكي، ومنار الهدى وغيرها.

ويبدو أنه منذ السبعينات تزايد وتكثيف عدد المدارس باللغة العربية في السنغال في تزايد حملة الشهادات العالية، مثل: الإجازة (الليسانس)، والماجستير، والدكتوراه، كما أعطت لها الحكومة السنغالية أهمية لم تكن من قبل للغة العربية ودراستها، فأدمجت العربية في المدارس الفرنسية وفي بعض الإدارات الوطنية ، ووظف مدرسين ومؤطرين ومكونين باللغة العربية، وأصبحت هذه اللغة تحتل المرتبة الثالثة في المؤسسات الحكومية الرسمية.

الخاتمة:

رافقت اللغة العربية الإسلام فكانا كعملتين، فحيثما ظهر الإسلام كان بجانب اللغة العربية، وقد اعتنق الشعب السنغالي الإسلام واللغة العربية فأحبها وتأثر بها وذلك في كل مظاهر حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وخاصة في حياته الروحية.

ويرى بعض المؤرخين أن انتشار اللغة العربية في غرب أفريقيا كان بسبب طلائع أصحاب عبد الله بن ياسين الذي استقر في فوتا السنغالية، وذلك حوالي القرن الحادي عشر، ومنذ ذلك الزمن ما زالت اللغة العربية تنتشر وازداد، وأصبحت اللغة المتداولة بين أهالي السنغال، فكانت الإدارة الاستعمارية تتعامل بها مع الشعب السنغالي [16].

أصبحت اللغة العربية جزء لا تتجزأ من التكوين العقلي للإنسان السنغالي وثقافته، ويرى بعض الباحثين ان جل اللغات السنغالية، مثل: ولوف، والتكرور، والماندينكي أخذت من اللغة العربية، وكان الشعب السنغالي يستعمل بالكتابة الحرف العربي، ولذلك كان كل المخطوطات في السنغال ذات أصل عربي، وكان الشيوخ السنغاليون يدونون ويؤلفون باللغة العربية، وذلك نثرا وشعرا، وهذا قد ساهم مساهمة كبيرة في نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية، وجعلها من مكونات العقل السنغالي المسلم [17].

ويبدو أنه لا توجد منطقة في السنغال في هذا العصر إلا وفيها مدارس أو معاهد عربية أو كتاتيب يعلمون فيها اللغة العربية و العلوم الإسلامية.

الهوامش:

(1) – ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1964م، ص: 61.

(2) – ابن عذرى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، دار الثقافة، ج1، ص 848.

(3) – النحوي الخليل، المنارة والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص 30.

(4) – البكري، أبو عبيد، المسالك والممالك، الدار العربية للكتاب، 1992، ج2، ص: 885 – 889.

(5) – اندسوس عبد اللطيف، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988، ط1.

(6) – باه أبو بكر خالد، فوتا السنغالية ومجاري الدعوة الإسلامية في أفريقيا ..... مضيع الرسالة، 1956، ط1، ص9.

(7) – باه أبو بكر خالد، مرجع سابق، ص10.

(8) – Paul Marty, L'islam au senegal , T1, P69

(9) – مونتاي فيسان، ص 108.

(10) البكري أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص 472.

(11) - البكري أبو عبيد، المسالك والممالك، ج2، ص 862.

(12) - Paul Marty, L'islam au senegal , T1, P56

(13) – سيسي جورتي، السنغال والثقافة الإسلامية، ص 26.

(14) – جوف محمد، تاريخ المدارس القرآنية في غرب أفريقيا، ص 11.

(15) – جي مختار، فوتا السنغالية ودورها في نشر الحضارة الإسلامية في غرب أفريقيا، رسالة ماجستير.

(16) – جي مختار، مرجع سابق.

(17) – عبد القادر سيلا، المسلمون في السنغال، ص 149.

السياسة الأمريكية في القرن الأفريقي: التحديات والتحولات

د. محمد عبد الكريم أحمد
منسق أبحاث أفريقيا- معهد الدراسات المستقبلية- بيروت

أكد الخطاب الرسمي للرئيس الأمريكي جو بايدن على أن فترة رئاسته ستعمل على إعادة العلاقات الأمريكية الأفريقية إلى "القيم المشتركة القديمة"، وأن الشراكة الجديدة لن تكون متعلقة أو مرتهنة بمنافسة الصين، على خلفية ما لاحظه مراقبون أفارقة كثر من أن هذه العلاقات في عهد الرئيس السابق دونالد ترامب (2016-2020) وصلت إلى أدني نقطة طوال تاريخها، وتعهد خلفه بايدن "بعلاقة متبادلة محترمة"، وما دلت عليه السياسات العملية، لاسيما منذ منتصف أبريل 2021 الذي شهد تعيين وزير الخارجية الأمريكي أنتوني بلينكن الدبلوماسي السابق، وجيفري فيلتمان مبعوثًا أمريكيًا خاصًا للقرن الأفريقي، من انتهاج إدارة بايدن ما تعرف "بدبلوماسية الأزمة" والمبادرة بتفعيل أكبر للمشروطية الأمريكية؛ كما في حالتي إثيوبيا وإريتريا (والتي بدأت تؤتي ثمارًا واضحة مع نهاية مايو 2021 وسط تقارير عن بدء إريتريا سحب قواتها فعليًا للمرة الأولى من إقليم التيجراي).

أولًا- مقاربة إدارة جو بايدن لقضايا القرن الأفريقي: رؤية عامة

رغم اجتذاب إقليم القرن الأفريقي لأدوار دولية وإقليمية فاعلة، ومنافسة أحيانًا للسياسات الأمريكية، يظل الحضور الأمريكي "التقليدي" هو الأقوى، والأكثر حسمًا، واستمرارية في واقع الأمر، لاسيما مع تعدد نقاط ارتكاز السياسة الأمريكية في الإقليم سواء الإستراتيجية أم الاقتصادية أم السياسية أم العسكرية والأمنية في جيبوتي والصومال وإثيوبيا، وقدرة كبيرة على احتواء "النظام الإريتري" الذي يتحرك في مساحات محدودة لدعم أطراف إقليمية (السعودية والإمارات وإثيوبيا) في نزاعات محددة (كما في الأزمة في اليمن، والحرب في إقليم التيجراي). ويعزز الحضور الأمريكي في القرن الأفريقي فعالية واشنطن المرتقبة في إدارة ملفات عديدة بالإقليم مثل التحول الديمقراطي (في إثيوبيا والصومال)، والحفاظ على المصالح الأمريكية في إقليم البحر الأحمر انطلاقًا من جيبوتي.

كما تمثل "الحالة الإريترية" نقطة ارتكاز بالغة الخطورة في المرحلة الحالية والمستقبلية لسياسات "جو بايدن" في القرن الأفريقي لتقاطعاتها مع كافة مشاغل السياسة الأمريكية في

الإقليم: التحول الديمقراطي، والاحتواء المزدوج (إريتريا وجيبوتي، وإريتريا وإثيوبيا، وإريتريا وبنية الأمن الإقليمي في البحر الأحمر، وفي مستوى آخر تقاطعات وضع إريتريا مع المسائل الشرق أوسطية).

1- القرن الأفريقي في أولويات الإدارة الأمريكية: "إعادة الارتباط"؟

حظيت منطقة القرن الأفريقية باهتمام أمريكي تقليدي طوال عقود، بينما شهد هذا الاهتمام تقلبًا خطيرًا في عهد الرئيس السابق دونالد ترامب الذي غابت إدارته تقريبًا عن المشهد السياسي والاقتصادي وحافظت على قدر من الفاعلية الأمنية في الصومال وأفسحت المجال أمام الأطراف الإقليمية لاستغلال فراغات غير مسبوقة في المنطقة واكتساب أدوار تفوق مكانة هذه القوى الحقيقية، عبر ما يمكن وصفه "بشراء أدوار" مرحلية مكنت دول مثل الإمارات والسعودية وإثيوبيا وإريتريا من القيام بأدوار عسكرية جنوبي البحر الأحمر وخليج عدن بحرية تامة وعلى خلفية "احتواء" النفوذ الإيراني في المنطقة.

وسعت إدارة بايدن بقوة، بعد أسابيع قليلة من تكهنات مواصلتها تجاهل ترامب لمقاربة حقيقية لأزمات المنطقة، إلى إعادة ارتباطها بأزمات المنطقة وقضاياها، وتركز هذا المسار في توجيه انتقادات منتظمة للدور الإريتري بداية في أزمة إقليم التيجراي، ثم انتقادات مباشرة لنظام آبي أحمد، ووصل المسار إلى بيان رسمي من الرئيس الأمريكي مخصص بالكامل حول "الأزمة في إثيوبيا" (26 مايو 2021) مما يعبر عن إعادة ارتباط أمريكي كامل بقضايا القرن الأفريقي، يتوقع تصاعده في الفترة المقبلة على وقع مقاربة أمريكية أكثر شمولًا و"مؤسساتية" لهذه القضايا.

ويتضح من استقراء بيان بايدن وجود رؤية أمريكية أكثر شمولًا، مقارنة بفترة سابقة، للأزمة في إثيوبيا وتصاعد العنف "في أجزاء متفرقة من البلاد"، وحث قادة إثيوبيا ومؤسساتها على تعزيز المصالحة وحقوق الإنسان واحترام التعددية، وأن القيام بذلك "سيحفظ وحدة" إثيوبيا وسلامة أراضيها ويضمن حماية "الشعب الإثيوبي"، وأنه على جميع مكونات الحياة السياسية في إثيوبيا اللجوء لحوار شامل، وأن الولايات المتحدة، بحكم صلاتها الوطيدة مع إثيوبيا، ستعمل (عبر مبعوثها فيلتمان) مع الاتحاد الأفريقي والأمم المتحدة والشركاء الدوليين الآخرين على "تجديد جهودها الدبلوماسية" للمساعدة بسلمية على تسوية الصراعات المتشابكة في الإقليم "بما فيها التوصل لتسوية للنزاع حول سد النهضة الإثيوبي العظيم تلبي حاجات جميع الأطراف" ،

وأن المبعوث الخاص سيعود في الأسبوع المقبل (مطلع يونيو) وسيطلع الرئيس الأمريكي مباشرة على تقدم هذا المسار[1].

2- أزمة "الديمقراطية والأمن"

من الشائع عن أية إدارة ديمقراطية أمريكية إعطاء أولوية (وفرض مشروطيات سياسية) لتعزيز الديمقراطية في العالم وفي أفريقيا، لكن لم تبد مؤشرات قوية على انتهاج إدارة بايدن هذه المقاربة بفاعلية في أفريقيا (ربما لوصول الإدارة بعد ما يمكن وصفه بعام الانتخابات الأفريقية 2020) ، فيما أكد مراقبون أن قرار بايدن سحب القوات الأمريكية من أفغانستان وتعهده بعدها بوقت وجيز بتقديم تدريبات عسكرية للجيش الموزمبيقي لمواجهة المسلحين الإسلامويين في شمال البلاد يعد علامة على تغير في السياسة الأمريكية لصالح الحرب ضد الإرهاب في أفريقيا ويدلل على أولوية واشنطن في مكافحة الإرهاب في أفريقيا (في شرق أفريقيا والقرن الأفريقي حيث تتمركز القوات الأمريكية العاملة في القارة) بالتزامن مع تصنيف إدارة بايدن لجماعة الشباب بموزمبيق وجماعة مماثلة في جمهورية الكونغو الديمقراطية كجماعتين إرهابيتين عالميتين[2].

وتبدو أزمة متلازمة "الديمقراطية والأمن" في السياسات الأمريكية في القرن الأفريقي في عهد جو بايدن في ملفين رئيسيين هما الانتخابات في إثيوبيا، ونظيرتها في الصومال، وارتباط مقاربة واشنطن لهذين الملفين بمسألة الأوضاع الأمنية في البلدين. ففي إثيوبيا تركز واشنطن على الأزمة في إقليم التيجراي وضرورة وضع نهاية لها تتمثل في خروج القوات الإريترية في المقام الأول، مع إغفال الإدارة الأمريكية لأزمات أمنية حادة للغاية في إقليمي أوروميا وبني شنقول-قمز، وتصاعد التوتر الإثني في الإقليم الصومالي وإقليم العفر، واستمرار سياسات التهميش المبالغ فيه لمواطني هذه الأقاليم مما يستحيل معه توقع عملية انتخابية سليمة في حدها الأدنى حتى في حال استثناء إقليم التيجراي من العملية الانتخابية برمتها. أما في الصومال فإن الدعم الأمريكي لإجراء الانتخابات الصومالية بمقتضى اتفاق 17 سبتمبر 2020 لم يقترن

1The White House, Statement by President Joe Biden on the Crisis in Ethiopia, Briefing Room, May 26, 2021 https://www.whitehouse.gov/briefing-room/statements-releases/2021/05/26/statement-by-president-joe-biden-on-the-crisis-in-ethiopia/

[2]Philip Sanders, US- Africa Policy: President Joe Biden seeks to turn a new leaf, DW, April 29, 2021 https://www.dw.com/en/us-africa-policy-president-joe-biden-seeks-to-turn-a-new-leaf/a-57379037

حتى الآن بتعزيز القدرات الأمنية الصومالية أو بذل جهود لفك ارتباط نظام فرماجو بالسياسات الإثيوبية سواء بشكل مباشر (عبر الضغط على حكومة فرماجو بأدوات فعالة مثل المخصصات المالية) أو غير مباشر (عبر تفكيك القنوات التي كرست لهذا الارتباط مثل الدعم الخليجي لسياسات الهيمنة الإثيوبية في الإقليم والصومال على وجه الخصوص، وسط تقارير عن مطالب بالكونجرس الأمريكي للضغط على الإمارات تحديدًا لتحجيم نفوذها في إقليم القرن الأفريقي). لكن الخطوات الأمريكية الأخيرة تؤشر على حد أدنى من "المشروطية السياسية" الأمريكية في القرن الأفريقي في سياق مساعي الحفاظ على النفوذ الأمريكي.

3- الدفاع عن النفوذ الأمريكي

ظل إقليم القرن الأفريقي والبحر الأحمر بؤرة اهتمام دائمة في بنية الأمن القومي الأمريكي، ورغم وثاقة الصلة مع كبرى دول القرن الأفريقي: إثيوبيا، فإن جنوح الأخيرة نحو المجازفة بالتلاعب بثوابت الدور الأمريكي واستغلال تراجعات الاهتمام الأمريكي في عهد دونالد ترامب، أو سياسات الأخير بترك مساحات أكبر للفاعلين الإقليميين من دول القرن أو خارجه (من قبيل توطيد إثيوبيا علاقاتها مع الصين وتبنيها فكرة أن تكون رأس جسر مبادرة الحزام والطريق الصينية في أفريقيا، وسعي الإمارات لتحقيق اختراقات غير مسبوقة في الإقليم على حساب مصالح استراتيجية لشركاء آخرون للولايات المتحدة مثل مصر)، قاد كل ذلك إلى مبادرة الإدارة الأمريكية الجديدة بانتهاج مقاربة حاسمة وممارسة ضغوط لصيقة وتأكيد محدودية خيارات "الحلفاء" خارج ما يتسق مع المصالح والسياسات الأمريكية بشكل كلي (عدم الفصل الجزئي بين السياسي والاقتصادي والأمني). ويتضح هذا السلوك في الضغط المستمر على نظامي آبي أحمد وأسياس أفورقي بخصوص أزمة إقليم التيجراي. ورغم مراوغاتهما في الاستجابة للضغوط الأمريكية (والأوروبية) فإن نجاعة المقاربة الأمريكية تتضح بشكل كبير، وإن لم يكشف الكثير عن أبعاده، في اضطراب أداء الخارجية الإثيوبية وإصدارها بيانات متضاربة، وخفوت دور آبي أحمد في الأزمة، وما تردد قبيل نهاية مايو الفائت (27مايو) عن بدء إريتريا في سحب قواتها من إقليم التيجراي بعد مراوغات إثيوبية- إريترية استمرت نحو أربعة شهور.

ثانيًا- أزمة إقليم التيجراي وتداعياتها على العلاقات مع إثيوبيا

اشتبكت أزمة إقليم تيجراي، منذ يومها الأول، بدور الولايات المتحدة في القرن الأفريقي؛ حيث اختار رئيس الوزراء الإثيوبي آبي أحمد إطلاق الحملة العسكرية في الإقليم عشية انطلاق الانتخابات الرئاسية الأمريكية، وما تصوره شللًا أمريكيًا عن فتح ملفات جديدة، وعلى

خلفية النهج التقليدي للرئيس السابق دونالد ترامب بإفساح المجال أمام سياسات القوة الإقليمية "بحدود معينة".

1- الموقف الأمريكي من الأزمة

أصدرت الإدارة الأمريكية الجديدة بالفعل العديد من البيانات المحددة عن صراع التيجراي في إثيوبيا الذي لم يحظ باهتمام كبير في ظل إدارة دونالد ترامب، لاعتبارات التوقيت في المقام الأول حيث وقعت الأزمة عشية الانتخابات الأمريكية مباشرة واتسم موقف ترامب بعدها بتجاهل الأزمة بشكل كبير بعد مؤشرات خسارته الانتخابات الأمريكية. وبادر وزير الخارجية الأمريكي في أولى تعليقاته على الشئون الخارجية بانتقادات حادة لانتهاكات حقوق الإنسان في إثيوبيا وأشار لها بمصطلح "التطهير العرقي"، بينما تمهل الرئيس بايدن في حسم مسألة تنفيذ قرار سلفه ترامب أغلب القوات الأمريكية من الصومال، الذي تعتبره إثيوبيا منطقة نفوذ خالصة لها، بينما أكد في منتصف أبريل الفائت قرار ترامب المشابه بخصوص أفغانستان[3].

وتعد المقاربة الأمريكية "الجديدة" تجاه نظام آبي أحمد بمثابة تغيير مسار صريح، كما يتجسد في تعليقات مسئولين إثيوبيين قبيل بيان الخارجية الإثيوبية (24-25 مايو 2021) التي هاجمت واشنطن صراحة على خلفية قراراتها بقيود جديدة تشمل خفضًا للمساعدات وحظر سفر بعض المسئولين الإثيوبيين إلى الولايات المتحدة (وفق إعلان وزير الخارجية أنتوني بلينكن 23 مايو 2021، ما اعتبره مراقبون أمريكيون خطوة غير معتادة ضد حليف أفريقي رئيس واستنكار أمريكي ضد آبي أحمد الحائز على جائزة نوبل للسلام، وكذلك جميع المسئولين الإثيوبيين المتورطين في أزمة إقليم التيجراي. وأن الهدف الرئيس للإجراءات النظام الإثيوبي الذي يحكم أكبر متلق للمساعدات الأمريكية في أفريقيا جنوب الصحراء والدولة التي عدت لفترة طويلة حليفًا إقليميًا رئيسًا ومنطقة عازلة ضد العنف الإسلاموي، الأمر الذي سيتأثر بالضرورة كون الخفض في المعونات الأمريكية لإثيوبيا (التي يصل إجمالها إلى بليون دولار أمريكي) يتركز المساعدات الأمنية والاقتصادية وإن مثلت جزءًا صغيرًا (لم تتحدد قيمته بعد) من هذه المعونات التي تتركز في معونات إنسانية سنوية[4].

---

[3]Philip Sanders, US- Africa Policy: President Joe Biden seeks to turn a new leaf, Op. Cit.

4Declan Walsh, Changing Tack, U.S. Sanctions Ethiopia Over Abuses in Tigray War, The New York Times, May 26, 2021 https://www.nytimes.com/2021/05/24/world/africa/ethiopia-us-sanctions-tigray.html

وقد علقت واشنطن (التي بلغت مساعداتها لأثيوبيا في العام 2019 إلى 923 مليون دولار أغلبها لأغراض إنسانية وموجهة لقطاعات الرعاية الصحية ومعونات الأغذية والتعليم ودعم الديمقراطية،)بالفعل مساعدات بقيمة 23 مليون دولار كانت موجهة للقطاع الأمني، واعتبر مسئولون أن هذه الإجراءات ستعوق أية مبيعات سلاح أمريكية لإثيوبيا، رغم حقيقة أن أغلب السلاح الإثيوبي يأتي من روسيا[5].

2- الاستجابة الإثيوبية

تحاول حكومة أديس أبابا أن تبدو على قدم المساواة مع واشنطن (حتى بمعايير القوة الحقيقية والتأثير الدولي) في استجابتها "لتوجيهات" الأخيرة بشأن أزمة تيجراي والعلاقة مع إريتريا والانتخابات العامة الإثيوبية؛ ففي 25 مايو 2021 أصدرت الخارجية الإثيوبية بيانًا صحفيًا حول قرار الولايات المتحدة بفرض قيود على التأشيرات على المسؤولين الإثيوبيين على خلفية تقاعس حكومتهم عن الاستجابة للمطالب الأمريكية، وأسفت "حكومة جمهورية إثيوبيا الديمقراطية الاتحادية"إثر علمها بقرار الولايات المتحدة مواصلة ممارسة ضغوط "لا داعي لها" على إثيوبيا من خلال فرض هذه القيود، بالإضافة إلى قراراتها السابقة بتقليص المساعدات الاقتصادية والأمنية لإثيوبيا. وفي لهجة إنكارية في واقع الأمر عبرت أديس أبابا عن دهشتها لأنها "كانت تتوقع الدعم والتفهم وليس مثل هذا النوع من الإجراءات غير الحكيمة للتغلب على الانتخابات بلا داع"، وأن هذه الخطوات الأمريكية "ستقوض بشكل خطير" العلاقة الثنائية طويلة الأمد والمهمة، لاسيما ما اعتبرته حكومة آبي أحمد آسفة ميلًا للإدارة الأمريكية لمعاملتها على قدم المساواة مع جبهة تحرير تيجراي "الجماعة الإرهابية". وعاد البيان –في تناقض مع المقدمات السابقة- للتأكيد على عمل الحكومة الإثيوبية بوعي على تعزيز الحوار الوطني من خلال سلسلة من المشاركات مع قطاعات أوسع من المجتمع الإثيوبي، وأنه فيما يتعلق بانتهاكات حقوق الإنسان "المزعوم ارتكابها في إقليم تيجراي"فإن الحكومة الإثيوبية تفي بالتزامها بمحاسبة المسؤولين (؟؟)، كما أنها بل وفرت وصولاً كاملاً ودون عوائق للجهات الفاعلة الإنسانية للعمل في جميع أنحاء الإقليم. ولفتت الخارجية الإثيوبية في ختام بيانها إلى إضرار متوقع وتقويض لروح المشاركة البناءة والمكاسب الكبيرة التي تحققت على الأرض بين البلدين والعلاقات الشعبية بينهما التي تعود لقرون.

وعد التصعيد الأمريكي ضد النظام الإثيوبي بالغ الأهمية لاسيما أن إثيوبيا حامية للأمن الأمريكي في منطقة القرن الأفريقي، وأنه لا يمكن قراءة التحركات الأمريكية باستهانة أو أي

[5] Ibid.

تقليل من خطورتها، إذ أنها الأعنف منذ عقود، كما أنها لا تقتصر على التحرك الأمريكي بل ستليها بالضرورة حشد أمريكي لضغط دولي أكبر لفرض وقف للقتال في إقليم تيجراي، في مواجهة نظام آبي أحمد الذي أظهر مقاومة تامة للضغوط الخارجية منذ وصوله للسلطة، وجنح إلى تقوية تحالفه مع الرئيس الإريتري أسياس أفورقي[6].

3- احتمالات التصعيد والتهدئة

يبدو أن نظام آبي أحمد يميل للتصعيد "اللفظي" في علاقاته مع واشنطن ريثما يتم ترتيب الشأن الداخلي وتهيئة قبول تغييرات جذرية في سياساته الداخلية والخارجية، وكذلك للحفاظ على صورة زعامة آبي أحمد لدى أنصاره كزعيم قوي وصاحب مشروع "وحدوي" يواجه مؤامرات خارجية حثيثة للوقوف دونه، حتى من بين أقرب حلفاء إثيوبيا التقليديين (الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي). ويرى مراقبون إثيوبيون معارضون لتوجهات وسياسات آبي احمد أنه يحرص على حشد مؤيدين له عبر توجيه نيرانه صوب المنتقدين الغربيين له، وأن خطاباته في الأسابيع الأخيرة مضت في هذا المسار بقوة باستخدام لغة عدوانية وقول أمور "تقشعر منها الأبدان"[7]، ولا تعبر عن حجم إثيوبيا الحقيقي في واقع الأمر، دون أن ينفي ذلك وجود قنوات فعالة للضغط الأمريكي على آبي أحمد مما يتوقع معه استجابات إثيوبية "غير معلنة" مرحليًا، كما اتضح في إرساء الحكومة الإثيوبية عطاء ترخيص شبكة الهاتف المحمول للكونسرتيوم الذي تقوده شركة فودافون البريطانية وتضمن عرضها (الممول جزئيًا من جهة تمويل أمريكية رسمية) عدم استخدام إثيوبيا لمعدات صينية الصنع في إقامة هذه الشبكة[8].

ثالثًا- واشنطن و "ضبط" التحول السياسي في الصومال

أبدت واشنطن في عهد "بايدن" اهتمامًا ملحوظًا بالاستقرار السياسي في الصومال وتخلت عن نهج "دونالد ترامب" الذي خول إثيوبيا حق التدخل الكامل في شئون الصومال وسياساته بالتعاون مع عدد من شركائها الإقليميين، واتضح ذلك في الضغوط الأمريكية على الرئيس محمد عبد الله فرماجو، رجل إثيوبيا القوي في مقديشو حسب مراقبين وسياسيين صوماليين كثر في الآونة الأخيرة، للتراجع عن خطوة تمديد فترة رئاسته الذي صدر وسط

---

[6] Declan Walsh, Changing Tack, U.S. Sanctions Ethiopia Over Abuses in Tigray War, Op. Cit.

[7] Ibid.

8Stu Woo and Alexandra Wesler, U.S.-China Tech Fight Opens New Front in Ethiopia, The Wall Street Journal, May 22, 2021 https://www.wsj.com/articles/u-s-china-tech-fight-opens-new-front-in-ethiopia-11621695273.

اضطرابات إقليمية في القرن الأفريقي، وربما تصورات بتوفر الفرصة لحقيق انقلاب سياسي على الانتخابات الصومالية.

1- موقف واشنطن من تطلعات "فرماجو"

كان الموقف الأمريكي واضحًا للغاية في رفض مساعي الرئيس الصومالي المنتهية ولايته محمد عبد الله "فرماجو" تمديد فترة رئاسته عامين آخرين بالمخالف لاتفاق 17 سبتمبر 2020 واضحًا للغاية، وقاد الرفض الأمريكي في النهاية –ضمن تفاعلات داخلية وإقليمية أخرى- إلى تراجع الرئيس "فرماجو" نهاية أبريل الفائت عن هذه المساعي بإعلانه رسميًا في خطاب أذاعه التليفزيون الصومالي (27 أبريل) ترحيبه بجهود رئيس الوزراء محمد حسين روبلي وقادة "الإدارات الإقليمية"(تحديدًا رؤساء غلمدوغ، وهيرشبيلي، وجنوب غرب) وللوصول إلى السلام وحل أزمة الانتخابات العالقة، لافتًا إلى إعادة مجلس الشعب النظر في قرار تمديد فترة رئاسته وسعيه لاستعادة البرلمان مسار اتفاق 17 سبتمبر بخصوص الانتخابات، ولم يفته اتهام "حكومات أجنبية" لم يسمها بمسئوليتها عن تأخير الانتخابات في الصومال[9]. وجاءت خطوة "فرماجو" بعد ساعات من إعلان زعيما هيرشبيليوغلمدوج، المقربان منه، أن الطريق الوحيد لمضي الصومال إلى الأمام هو تطبيق اتفاق 17 سبتمبر للانتخابات[10].

وبادرت واشنطن مطلع مايو 2021 بالترحيب بقرار فرماجو إلغاء تمديد ولايته في نفس يوم إعلانه، كما أكدت الخارجية الأمريكية أن اتفاق 17 سبتمبر سيدفع البلاد نحو انتخابات حرة ونزيهة وذات مصداقية، وأكد البيان "ترحيب الولايات المتحدة بالخطوات التي اتخذها اليوم (1 مايو) الرئيس فرماجو ومجلس الشعب بالبرلمان الصومالي بالعودة رسميًا إلى اتفاق الانتخابات 17 سبتمبر 2020، وفي قبول عملي بإدارة رئيس الوزراء حسين روبلي للمرحلة التالية للقرار رحب البيان بقرار فرماجو قيادة روبلي لجهود الحكومة الفيدرالية لإتمام الاتفاق ومراقبة تطبيق العملية الانتخابية، بما في ذلك الترتيبات الأمنية. ودعت الولايات المتحدة، أحد أهم المعنيين بالأمن والتنمية في الصومال وأهم شريك دولي دفع بقوة باتجاه إتمام العملية الانتخابية به وفق اتفاق 17 سبتمبر، جميع الأطراف للاتفاق على الاجتماع فورًا دون شروط مسبقة لإتمام

9Somali President drops term extension, accuses ex-leaders and foreign governments, Somali Affairs, April 27, 2021 https://www.somaliaffairs.com/news/somali-president-addresses-election-controversy-blames-ex-leaders-and-foreign-governments/

10Somalia: Will Somalia's Parliament Oust Prime Minister Roble? Somalia affairs, April 28, 2021 https://www.somaliaffairs.com/features/somalia-will-somalias-parliament-oust-prime-minister-roble/

الترتيبات الانتخابية والبدء في التطبيق بشكل تعاوني وشفاف. وأن الولايات المتحدة مستعدة لدعم إجراء الانتخابات في أقرب وقت ممكن[11].

2- واشنطن وتوازنات التدخل الخارجي في الصومال

تمكنت الولايات المتحدة -إلى حد كبير، ربما يتضح في المتابعة الدقيقة حيث تراجعت الجهود الإماراتية والقطرية لاستقطاب ساسة صوماليون، وتراجع الدعم العسكري والسياسي الذي كانت توفره أديس أبابا للرئيس فرماجو- من تحجيم التدخلات الخارجية في ملف الانتخابات الصومالية وإدارتها بشكل لصيق وصولًا إلى إفساح المجال أمام الأمم المتحدة لرعاية العملية السياسية الحالية وتكليف رئيس الوزراء روبلي بعقد اجتماعات موسعة بدءًا من الأسبوع الثالث من مايو 2021 في العاصمة مقديشو لمناقشة سبل المضي قدمًا في الانتخابات الصومالية وفق جدول زمني واضح ومناقشة العديد من المسائل الأخرى. وتلا اجتماعات روبلي مع قادة الولايات الخمسة اجتماعات مماثلة مع قادة المعارضة الصومالية الذي ثمنوا مقاربته التوافقية. وسرعان أن أعلن عبد الرزاق محمد وزير خارجية الصومال خلال اجتماع بالأمم المتحدة حول الصومال (26 مايو 2021) التوصل لاتفاق سيقود الصومال إلى عقد انتخابات حرة ونزيهة[12].

وامتدحت الأمم المتحدة على لسان مبعوثها الخاص للصومال جيمس سوان (25 مايو 2021) تحركات قادة الصومال "الذين سعوا لتحقيق الإجماع وعملوا على خفض تصعيد الموقف لصالح الشعب الصومالي، وكذلك تخويل الرئيس محمد عبد الله "فرماجو" رئيس وزرائه محمد حسين روبلي قيادة مشاركة الحكومة الفيدرالية في العملية الانتخابية ومراقبة الترتيبات الأمنية. وتركزت المحادثات الجارية على تسوية المسائل العالقة بخصوص تطبيق اتفاق 17 سبتمبر والقضايا المتعلقة بالانتخابات المقبلة، حيث تدعم الأمم المتحدة ترتيبات عقد قمة شاملة في مقديشو بالتنسيق مع الولايات المتحدة والاتحاد الأفريقي، والاتحاد الأوروبي و"إيجاد" والشركاء الدبلوماسيون الآخرون[13].

---

[11] US welcomes Farmajo decision to cancel term extension, Garowe online, May 2, 2021 https://www.garoweonline.com/en/news/somalia/us-welcomes-farmajo-decision-to-cancel-term-extension

[12] Somali leaders to strike deal as UN piles more pressure over electoral impasse, Garowe online, May 26, 2021, https://www.garoweonline.com/en/news/somalia/somali-leaders-to-strike-deal-as-un-piles-more-pressure-over-electoral-impasse

13 Somali leaders walk 'back from the brink', resume talks on critical elections, UN News, May 25, 2021 https://news.un.org/en/story/2021/05/1092722

عادت الولايات المتحدة بقوة للانخراط في الشأن الصومالي على الأرض في أجواء الاستعداد للانتخابات الصومالية، وتمثل ذلك في توجيه القوات الأمريكية في 20 يوليو الفائت ضربة جوية كبيرة ضد عناصر جماعة الشباب الصومالية، حيث بادرت القيادة الأمريكية العسكرية في أفريقيا "أفريكوم" بالتنسيق مع الحكومة الصومالية بشن الضربة على منطقة جالكايوGalkayo (الواقعة على بعد 700 كم شمال شرق مقديشو)، وتمثل الضربة الأولى من نوعها التي يقوم بها الجيش الأمريكي في الصومال منذ 19 يناير 2021 عندما أعلنت "أفريكوم" قتل عنصرين من "الشباب" في ضربتين جويتين منفصلتين (قبل تولي جو بايدن الإدارة الأمريكية رسميًا بيوم واحد)[14].

ومن الأوجه المعبرة عن نجاعة المقاربة الأمريكية في الصومال حدوث تقارب مهم بين الصومال وكينيا (أحد أبرز شركاء واشنطن في أفريقيا) قبيل منتصف أغسطس 2021 حيث بادرت الحكومة الكينية باستقبال حسين روبلي (وسط تحفظات من قبل "فرماجو") في مدينة ممباسا الساحلية وعقده محادثات مهمة مع الرئيس الكيني أوهوروكينياتا (10 أغسطس 2021) والتأكيد على تعميق التعاون بين البلدين في مجالات مثل الأمن والتجارة والاستثمارات عبر "التطبيق الكامل لمفوضية التعاون المشتركة 2015 Joint Commission for Cooperation (JCC) التي كونت في العام 2015. كما رحب كينياتا باستعادة الصلات الدبلوماسية بين البلدين ودعا إلى "تسوية النزاع الحدودي البحري" بينهما[15].

3- سيناريوات الدعم الأمريكي لبناء الدولة في الصومال

تقوم هذه السيناريوات على أساس قوي في الوقت الراهن من جنوح إدارة جو بايدن للبقاء على الأرض في الصومال لدعم جهود مكافحة الإرهاب وتأجيل تنفيذ سحب قواتها وإعادة نشرها خارج الصومال (حسبما كانت تقتضي خطة دونالد ترامب قبل خروجه من البيت الأبيض بأسابيع)، وكذلك العزم الواضح بدعم مقديشو في الانتخابات المقبلة والتعاون مع الحكومة المقبلة.

يتسق السيناريو الأول مع السياسات الحالية، ويتوقع أن يزيد الدعم الأمريكي اللوجيستي والأمني والسياسي لرئيس الحكومة حسين روبلي، الذي يتمتع بدوره بقبول ملموس بين قطاعات مختلفة، وتأكيد الرئيس الأمريكي بايدن (26 مايو) عزم بلاده الانخراط في قضايا القرن الأفريقي

14US Launches Air Strike Targeting Al Shabaab in Somalia, the Defence Post, July 21, 2021 https://www.thedefensepost.com/2021/07/21/us-air-strike-somalia/

15Kenya, Somalia agree to fix strained relations, Xinhua, August 11, 2021 http://www.xinhuanet.com/english/africa/2021-08/11/c_1310119820.htm

عبر دبلوماسية أمريكية ستعكس القيم الأمريكية وأبرزها الدفاع عن الحرية وحماية الحقوق الشاملة واحترام حكم القانون ومعاملة جميع المواطنين باحترام[16].

ويتمثل السيناريو الثاني في قصر الولايات المتحدة جهودها على تنسيق الأدوار الإقليمية التقليدية في الصومال في الأعوام السابقة (لاسيما المحورين السعودي/ الإماراتي، والتركي/ القطري) بما لا يعوق الانتخابات المقبلة ويضمن استمرار جهود إعادة بناء الصومال بغض النظر عن حجم التقدم المنجز. وهو سيناريو يتوقف بشكل كبير على خطوات واشنطن في الفترة المقبلة، والتي ستتضح أولى معالمها –بخصوص الصومال- في زيارة جيفري فيلتمان مطلع يونيو للمنطقة ومدى حضور الملف الصومالي فيها.

رابعًا- المصالح الأمريكية في البحر الأحمر: جيبوتي وإريتريا

تمكنت الولايات المتحدة من تعزيز مصالحها في البحر الأحمر بعد حرب أكتوبر 1973 إذ تطور الوجود الأمريكي من مجرد تأجير قاعدة استطلاع "كانيو" Kagnew Station في أسمرا (بإثيوبيا حينذاك) إلى سلسلة من الترتيبات الأمنية في الإقليم وصولًا إلى إقامة قاعدة أمريكية دائمة (وهي كامب ليمونيه، وهي القاعدة الأمريكية الوحيدة الدائمة في أفريقيا) في جيبوتي بعد أحداث سبتمبر 2001، والتي أ=تأسست بموجب اتفاق رسمي بين البلدين في العام 2003، وانتهاج واشنطن سياسات أكثر تشددًا حتى مع حلفاءها التقليديين في المنطقة مثل فرنسا، وتنسيق علاقات مباشرة مع دول المنطقة مثل جيبوتي والصومال في إطار سياسات مواجهة الإرهاب وضمان سلاسة حركة الملاحة الدولية وتنسيق الوجود الأوروبي العسكري والأمني في المنطقة.

1- الموقف الأمريكي من تحولات "نظام البحر الأحمر"

مثلت مرحلة إدارة الرئيس الأمريكي السابق دونالد ترامب اضطرابًا ملفتًا في السياسة الأمريكية التقليدية في القرن الأفريقية بعد 11 سبتمبر 2001، إذ أتاح تجاهل الإدارة الاستجابة السريعة لتهديدات المنطقة، والتحرك في اللحظات الأخيرة بشكل متعمد، الفرصة أمام الأطراف الإقليمية والدولية للعب أدوار أكبر، وتجسد ذلك في تعاظم النفوذ الصيني ووصوله في العام 2019 إلى مستويات خطيرة في جيبوتي على سبيل المثال حيث امتلكت الصين بتقديرات هذا العام نحو 30% من ديون الأولى، مما أضفى مصداقية كبيرة على وصف الوجود الصيني في

[16]The White House, Statement by President Joe Biden on the Crisis in Ethiopia, Briefing Room, May 26, 2021 https://www.whitehouse.gov/briefing-room/statements-releases/2021/05/26/statement-by-president-joe-biden-on-the-crisis-in-ethiopia/

الدولة الصغيرة ذات الأهمية الإستراتيجية الفائقة بأنه "تسونامي"[17].كما تعاظمت – على سبيل المثال- القوة السعودية- الإماراتية جنوبي البحر الأحمر وزادت رسوخًا حتى بعد انتهاء الأزمة اليمنية التي كانت حاضرة في أجندة الرئيس جو بايدن وحثه على وضع نهاية لها قبل أسابيع. وأكد التحالف العسكري الذي تقوده السعودية في اليمن نهاية مايو 2021 إرسائه وجودًا عسكريًا على جزيرة بريم Perim(المعروفة باسم جزيرة مايونMayun) في مضيق باب المندب في سياق دحض الرياض لتقرير صادر عن وكالة أسوشيتدبرس نقل عن مسئولين يمنيين قولهم أن الإمارات أقدمت على إقامة قاعدة جوية على الجزيرة "بشكل منفرد". وأوضحت الرياض أن الصور الملتقطة لمهبط طائرات بطولة 1.85 كم وثلاثة حظائر وترصد معدات عسكرية متنوعة تخضع جميعها لسيطرة قيادة التحالف وأنها هناك لمواجهة ميليشيات الحوثي وتأمين الملاحة البحرية ودعم "قوات الساحل الغربي"[18].

وهكذا يتوقع أن تواجه الولايات المتحدة مثل هذه التحركات "الأحادية"، أو توابع التسهيلات السياسية والعسكرية التي منحتها إدارة ترامب لدول إقليمية، على نحو أكثر حسمًا، وربما بتفعيل أكبر لترتيبات الأمن الأمريكية- الأوروبية في البحر الأحمر وخليج عدن.

2- واشنطن ورئاسة عمر جيلة الجديدة

أقامت الولايات المتحدة علاقات دبلوماسية مع جيبوتي في العام 1977 بعد استقلالها مباشرة عن فرنسا، مع وجود تمثيل قنصلي لها قبل استقلالها (عندما كانت الصومال الفرنسي) منذ العام 1929. دعمت الحكومات الجيبوتية المتعاقبة بشكل واضح المصالح الأمريكية وأقدمت على خطوات مهمة لمواجهة الإرهاب. وتستضيف جيبوتي وجودًا عسكريًا أمريكيًا في قاعدة "كامب ليمونيه" (الوحيدة في أفريقيا) التي كانت مقرًا سابقًا للقوات الفرنسية، كما تتمتع القوات الأمريكية في جيبوتي بحقوق استخدام مرافق الموانئ والمطار حسب اتفاق دفاع ثنائي[19]. وتصنف جيبوتي بشكل واضح على أنها شريك رئيس للولايات المتحدة ويعول عليه في مجالات الأمن والاستقرار الإقليمي والجهود الإنسانية في أرجاء الإقليم. تستضيف العاصمة جيبوتي مركزًا هامًا لتخزين مواد السلع الغذائية التي تقدمها الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية U.S.

17Andres Schipani, Spying and stability: Djibouti thrives in 'return to cold war', Financial Times, May 11, 2021 https://www.ft.com/content/418b5250-f7fa-4ad3-837f-871dd259ec87

18Saudi-led coalition says it's behind military buildup on Red Sea island, EuroNews, May 27, 2021 https://www.euronews.com/2021/05/27/us-yemen-security-islands

19U.S. –Djibouti Relations, U.S. Embassy in Djibouti https://dj.usembassy.gov/our-relationship/

Agency for International Development's (USAID) للتوزيع لاحقًا بمقتضى "الاستجابة العاجلة" للأزمات الغذائية في أفريقيا وآسيا[20].

وقد تزامنت رئاسة الرئيس الجيبوتي عمر جيله الجديدة (بعد فوزه بالانتخابات في أبريل 2021) مع تعمق الانخراط الأمريكي في قضايا القرن الأفريقي. وبتوقع نمو اقتصادي يصل إلى 7% في العام الجاري، أي ضعف متوسط النمو في القارة الأفريقية، وفقًا لوزير المالية الجيبوتي، فإن جيبوتي التي تجتذب استثمارات صينية ضخمة في الموانئ والمناطق التجارية الحرة وخط سكك حديد مهم يخدم إثيوبيا الحبيسة مرشحة أن تكون واحدة من أسرع الاقتصادات نموًا في أفريقيا. وفي ظل استضافة جيبوتي خمسة قواعد بحرية عسكرية كبيرة، أحدثها القاعدة الصينية منذ العام 2017، وهي القاعدة الوحيدة لبكين خارج الأراضي الصينية، فإن جيبوتي تتمتع باستقرار كبير يعزز سياسات الحكومة "المحايدة" بين الولايات المتحدة والصين في المنطقة، رغم استمرار بعض التوترات بينهما فيما يصفه مسئولون جيبوتيون "بالعودة إلى الحرب الباردة". لكن ما يضمن لجيبوتي في المرحلة المقبلة استمرار قبولها لدى بكين وواشنطن دون اللجوء لدفعها لخيارات صفرية (بين العاصمتين الكبيرتين) وهو دورها الاقتصادي وإطلالها على خط ملاحة لثلث تجارة العالم، وكذلك كونها مركز أفريقي بالغ الأهمية في الجهود الغربية لمحاربة الإرهاب في الإقليم حيث درب الفرنسيون نحو 11 ألف جندي من دول الإقليم، أغلبهم من جيبوتي، كما تقوم القوات الفرنسية بحناية المجال الجوي لجيبوتي وفق اتفاق تعاون دفاعي مع باريس، وهو وضع تقبل به أغلب القوى المعنية بالإقليم لاسيما الولايات المتحدة لتعزيز دور جيبوتي المحوري في التحالف الدولي ضد جماعة الشباب الصومالية، وأنشطة القرصنة (التي شهدت تراجعًا كبيرًا في الآونة الأخيرة)[21].

وفي الواقع فإن جيبوتي ستظل ركيزة مهمة للتحرك الأمريكي في الإقليم، وسيظل الرئيس عمر جيلة، بالنسبة لواشنطن كما غيرها من العواصم الكبرى، عامل استقرار مهم في الإقليم (منذ العام 1999) كما أنه حقق نجاحًا اقتصاديًا نسبيًا لبلاده حيث قفز حجم الاقتصاد من 536 مليون دولار عند توليه قيادة البلاد (1999) إلى 3.3 بليون دولار في العام 2019، مع وجود تعهدات حكومية بمناقشات جارية حاليًا لتحقيق انتقال سياسي سلمي في فترة ما بعد جيله

[20]U.S. Relations With Djibouti: Bilateral Relations Fact Sheet, Bureau of African Affairs, August 27, 2020 https://www.state.gov/u-s-relations-with-djibouti/

[21]Andres Schipani, Spying and stability: Djibouti thrives in 'return to cold war', Op. Cit.

والتأكيد أن فترة رئاسته الخامسة الحالية هي الأخيرة[22]، مما يعني أن جيبوتي لن تكون على الأجندة الأمريكية في القرن الأفريقي بخصوص مسار التحول الديمقراطي في الفترة المقبلة.

3- واشنطن وتطلعات إريتريا الإقليمية

كانت الولايات المتحدة من أوائل الدول التي اعترفت بإريتريا عقب استقلالها إذ أعلنت اعترافها في 27 أبريل 1993 عندما أخبرت القنصلية الأمريكية في أسمرا السلطات الإريترية بذلك في نفس يوم استقلال إريتريا)، وتأسس العلاقات الدبلوماسية بينهما في 11 يونيو من نفس العام بترقية وضع القنصلية الأمريكية في أسمرا إلى سفارة.

وكان النظام الإريتري هدفًا للملاحظات الانتقادية الأولى لإدارة بايدن في شئون القرن الأفريقي على خلفية تورط نظام أفورقي في أزمة إقليم التيجراي واتهامات موثقة بارتكاب جرائم حرب وانتهاكات واسعة لحقوق الإنسان في الإقليم. وفي مطلع مارس 2021 طالبت واشنطن - بالتنسيق مع الأمم المتحدة- القوات الإريترية المتورطة في صراع التيجراي بالانسحاب على خلفية اتهام رئيس العمل الإنساني بالأمم المتحدة مارك لوكوكM. Lowcok للقوات الفيدرالية الإثيوبية وشريكتها الإريترية بالقيام "[حملة تدمير" في إقليم التيجراي وحاجة نحو 4.5 مليون نسمة للمساعدات ومطالبته القوات الإريترية بالخروج من الإقليم، وكانت ملاحظات لوكوك في جلسة مغلقة وعدت الأولى من نوعها على المستوى الأممي التي تربط القوات المسلحة الإريترية بالتورط في صراع التيجراي. بينما شهد الاجتماع إعلان سفيرة الولايات المتحدة بالأمم المتحدة ليندا توماس- جرينفيلد إرسال حكومة بلادها "فريق استجابة للمساعدة في شئون الكوارث" Disaster Assistance Response Team إلى إثيوبيا في وقت سابق، ودعم واشنطن دعوة الحكومة الإثيوبية لنهاية فورية للقتال في التيجراي، وكذلك دعم واشنطن لانسحاب عاجل للقوات الإريترية وقوات ولاية الأمهرا الفيدرالية من الإقليم[23].

ووصلت الضغوط الغربية والأمريكية على نظام أفورقي مرحلة متقدمة في مارس 2021 بإعلان الاتحاد الأوروبي خططًا لفرض عقوبات على هذا النظام تبدأ باستهداف عدد من المسئولين بالنظام الإريتري المتورطون في انتهاكات واسعة لحقوق الإنسان، وإعلان عزم المفوضية تقديم الاقتراح للدول الأعضاء في بروكسل وكذلك مناقشة "إطار للعقوبات ضد انتهاكات حقوق الإنسان" في إثيوبيا (وميانمار)، حسب جوزيب بوريل وزير الخارجية الأوروبي. وجاءت التحركات الأوروبية في سياق ضغوط أمريكية على الاتحاد لزيادة ضغوطه

[22] Ibid.
[23] U. N. and U. S. demand Eritrean Forces leave Ethiopia amid "mass killings, rapes, and abductions' in Tigray, CBS News, March 5, 2021

على إريتريا (باعتباره المانح الاقتصادي الأكبر لها) وإثيوبيا لخفض تصعيد الصراع في إقليم التيجراي، وتمت مناقشة تفاصيلها خلال وجود وزير الخارجية الأمريكي أنتوني بلينكن في بروكسل في ذلك الوقت[24].

وقبل نهاية مايو 2021 كثفت الإدارة الأمريكية، بداية من أرفع مسئوليها الرئيس جو بايدن، من تحذيراتها ضد النظام الإريتري (وإثيوبيا) بخصوص الأزمة في إقليم التيجراي. وأكد مسئولون أمريكيون (26 مايو) على إريتريا (وإثيوبيا) توقع مزيد من الإجراءات العقابية الأمريكية ضد من يغذون الصراع في التيجراي. وأضاف نائب مساعد وزير الخارجية لمكتب الشئون الأفريقية روبرت جوديك R. Godec أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ أن الوضع الأمني في الإقليم يزداد سوءًا منذ أسابيع، وان الولايات المتحدة تنظر بالفعل في مجموعة من "العقوبات الأخرى" (غير عقوبات تأشيرات الدخول على مسئولين إثيوبيين) بما فيها عقوبات بمقتضى قانون ماجنتسكي العالمي Global Magnitsky Law واستهداف أفراد "ومؤسسات"[25]،

4- مستقبل النفوذ الأمريكي في جيبوتي وإريتريا

يتوقع بشكل واضح تعزيز الولايات المتحدة نفوذها العسكري والأمني والاقتصادي في البحر الأحمر عبر البوابة الجيبوتية في ظل استقرار سياسي ملفت في هذه الدولة الصغيرة، لاسيما عند مقارنتها بالأوضاع بالغة السوء في إثيوبيا المجاورة، واحتمالات تداعي الأوضاع في إريتريا، والمخاض السياسي الصعب في الصومال. ويتوقع أن ينفتح الرئيس عمر جيله في فترة رئاسته الخامسة بشكل أكبر على الإدارة الأمريكية.

أما إريتريا فإن المقاربة الأمريكية نحوها مفتوحة على سيناريوات متعددة: أبرزها تصعيدات في المواجهة الأمريكية- الإريترية مع عودة سياسة العقوبات الأمريكية بشكل قوي ضد نظام أسياس أفورقي، ليس فحسب على خلفية تورطه في أزمة إقليم التيجراي ومساعيه لتمدد نفوذه خارج دائرته التقليدية، بل بالنظر إلى تراجع الأوضاع السياسية والاقتصادية وملف حقوق الإنسان في إريتريا، وهو الأمر الذي يبدو أنه سيكون على أجندة واشنطن في القرن الأفريقي ومحددًا هامًا لعلاقاتها مع أفورقي في المرحلة المقبلة، مما سيدفع الأخير إلى العودة لحالة العزلة والانكفاء داخل بلاده. ويتعزز هذا السيناريو في ضوء مقاربة أمريكية أكثر حزمًا مع بعض

24EU to Propose Targeted Eritrea Sanctions Over Ethiopia Conflict, Bloomberg, March 22, 2021 www.bloomberg.com/news/articles/2021

[25]Daphne Psaledakis and Patricia Zengerte, U.S. warns of further action against Ethiopia, Eritrea over Tigray, Reuters, March 27, 2021 www.reuters.com/world/africa/us.warnsoffurtheraction

الحلفاء العرب لاسيما الإمارات، وبدرجة ما السعودية، مما سيحرم إريتريا من دعم مفتوح حصلت عليه من هذه الدول في السنوات الأخيرة.

وبينما يمكن النظر بوضوح لمستقبل النفوذ الأمريكي التقليدي في جيبوتي، فإن الحالة الإريترية تظل مرهونة بحسابات واشنطن وتخوفاتها من تفكك الدولة الإثيوبية، وتقاطعات التحرك الإريتري في البحر الأحمر والقرن الأفريقي والشرق الأوسط، ومدى قدرة واشنطن على تنسيق العمل مع الاتحاد الأوروبي لبذل ضغوط محكمة على نظام أفورقي تدفع إلى سقوطه أو إحداث تغيير جذري في سياساته حال فقده أهم حلفائه حاليًا: نظام آبي أحمد في إثيوبيا.

خلاصة

تتبنى الولايات المتحدة في ظل إدارة الرئيس جو بايدن مقاربة أكثر تفهمًا وشمولًا حقيقة لقضايا القرن الأفريقي، ويتوقع أن تقود هذه المقاربة إلى تغيرات ملموسة في الإقليم، وإعادة ضبط تحولاته بما لا يضمن أية تبدلات حقيقية في توجهات الإقليم وحقيقة كونه منطقة نفوذ أمريكية- غربية تقليدية.

المراجع

1. Andres Schipani, Spying and stability: Djibouti thrives in 'return to cold war', Financial Times, May 11, 2021 https://www.ft.com/content/418b5250-f7fa-4ad3-837f-871dd259ec87
2. Daphne Psaledakis and Patricia Zengerte, U.S. warns of further action against Ethiopia, Eritrea over Tigray, Reuters, March 27, 2021 www.reuters.com/world/africa/us.warnsoffurtheraction
3. Declan Walsh, Changing Tack, U.S. Sanctions Ethiopia Over Abuses in Tigray War, The New York Times, May 26, 2021 https://www.nytimes.com/2021/05/24/world/africa/ethiopia-us-sanctions-tigray.html
4. EU to Propose Targeted Eritrea Sanctions Over Ethiopia Conflict, Bloomberg, March 22, 2021 www.bloomberg.com/news/articles/2021
5. Kenya, Somalia agree to fix strained relations, Xinhua, August 11, 2021 http://www.xinhuanet.com/english/africa/2021-08/11/c_1310119820.htm
6. Philip Sanders, US- Africa Policy: President Joe Biden seeks to turn a new leaf, DW, April 29, 2021 https://www.dw.com/en/us-africa-policy-president-joe-biden-seeks-to-turn-a-new-leaf/a-57379037
7. Saudi-led coalition says it's behind military buildup on Red Sea island, EuroNews, May 27, 2021 https://www.euronews.com/2021/05/27/us-yemen-security-islands
8. Somalia: Will Somalia's Parliament Oust Prime Minister Roble? Somalia affairs, April 28, 2021 https://www.somaliaffairs.com/features/somalia-will-somalias-parliament-oust-prime-minister-roble/
9. Somali leaders to strike deal as UN piles more pressure over electoral impasse, Garowe online, May 26, 2021, https://www.garoweonline.com/en/news/somalia/somali-leaders-to-strike-deal-as-un-piles-more-pressure-over-electoral-impasse
10. Somali leaders walk 'back from the brink', resume talks on critical elections, UN News, May 25, 2021 https://news.un.org/en/story/2021/05/1092722
11. Somali President drops term extension, accuses ex-leaders and foreign governments, Somali Affairs, April 27, 2021 https://www.somaliaffairs.com/news/somali-president-addresses-election-controversy-blames-ex-leaders-and-foreign-governments/

12. Stu Woo and Alexandra Wesler, U.S.-China Tech Fight Opens New Front in Ethiopia, The Wall Street Journal, May 22, 2021 https://www.wsj.com/articles/u-s-china-tech-fight-opens-new-front-in-ethiopia-11621695273.

13. The White House, Statement by President Joe Biden on the Crisis in Ethiopia, Briefing Room, May 26, 2021 https://www.whitehouse.gov/briefing-room/statements-releases/2021/05/26/statement-by-president-joe-biden-on-the-crisis-in-ethiopia/

14. U.S. –Djibouti Relations, U.S. Embassy in Djibouti https://dj.usembassy.gov/our-relationship/

15. US Launches Air Strike Targeting Al Shabaab in Somalia, the Defence Post, July 21, 2021 https://www.thedefensepost.com/2021/07/21/us-air-strike-somalia/

16. U.S. Relations With Djibouti: Bilateral Relations Fact Sheet, Bureau of African Affairs, August 27, 2020 https://www.state.gov/u-s-relations-with-djibouti/

17. US welcomes Farmajo decision to cancel term extension, Garowe online, May 2, 2021 https://www.garoweonline.com/en/news/somalia/us-welcomes-farmajo-decision-to-cancel-term-extension

18. U. N. and U. S. demand Eritrean Forces leave Ethiopia amid "mass killings, rapes, and abductions' in Tigray, CBS News, March 5, 2021

الصراعات المستمرة بين الثقافات الأفريقية كميدان مواجهة والتسلط الامبريالي

■ **أ. د . فتحي حسن نصار**
عضو هيئة تدريس، الأكاديمية الليبية طرابلس

■ **أ. عزالدين مختار فكرون**
عضو هيئة تدريس، جامعة المرقب

■ **أ .محمد سالم محمد بن سعيد**
عضو هيئة تدريس،جامعة مصراتة

مقدمة:

لعل أهم ما دفع الباحثون إلى اختيار عنوان هذا البحث هو الاعتقاد أن البداية الجادة للمعرفة الحقيقية لشعب ما، تأتي أولاً عن طريق ثقافته التي هي عبارة عن تفاعل بين عدة عوامل أهمها: السياسة، والاقتصاد، والقانون، الصناعة، والتقنيات وشتى فنون التعبير[1]، فالثقافة إذن مجموع النشاط الإنساني[2]، من خلالها نتعرف على أساليب الحياة وطرق الكفاح لشعب ما من الشعوب، سواء كان ذلك في الماضي أو الحاضر.

والسؤال لماذا؟

لأن الثقافة أولاً وقبل كل شيء تعبير عن الأمة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى .

لقد أدرك الاستعمار هذه الأهمية للثقافة، فقامت الإمبريالية الأوروبية قديماً والأمريكية حديثاً باستغلال المواد الثقافية والفكرية المسموعة والمرئية والمقروءة وكافة وسائل الإعلام الأخرى،

الموجهة بالذات إلى دول القارة الأفريقية ومنها بالطبع الوطن العربي، بأساليب وآليات منذ بداية الأطماع الاستعمارية وحتى اليوم، وإلى أجل غير مسمى، حرب شرسة غير معلنة، سلاحها الكلمة المكتوبة والمصورة والمسموعة[3].

ومن خلال الإرساليات الدينية بدأن حركة الاستعمار الأوروبي، سالكاً طابعاً تبشيرياً، ثم خطا خطوات أخرى بعد ذلك هادفاً تكوين المؤسسات والمعاهد التربوية والتعليمية ثم كانت الجامعة الأمريكية في القاهرة لأمركة العقول في وسط فئات الطلاب الذين هم جيل المستقبل .

ثم تطور الأمر إلى المواد المطبوعة، بهدف شل الحياة الثقافية وتكريس التخلف والتبعية لضمان دوام السيطرة من خلال خلق حاجات زائفة لدى الأفارقة وتغذيتها لتتحول إلى

جوع يتغلغل في المعنوية وينخر الجهاز العصبي في الإنسان من الداخل فيعطل بذلك توازنه الداخلي[4].

انطلاقاً من هذا المفهوم تتحدد مهمة هذا البحث في مناقشة المباحث التالية :

المبحث الأول : النهب الاستعماري الأوروبي للقارة الأفريقية .

المبحث الثاني : دور الثقافة العربية الإسلامية في نشر الوعي القومي الأفريقي .

المبحث الثالث : حركات التحرر الأفريقية والثقافة الأفريقية .

المبحث الرابع: دور المثقفين الأفارقة في كشف المخططات الإمبريالية .

وتأسياً على ما سلف يتم التفصيل كما يلي:

المبحث الأول: النهب الاستعماري الأوروبي للقارة الأفريقية :

سارعت القوى الاستعمارية للتسابق الشرس فيما بينها للسيطرة على أكبر قدر من الأرضي والثروات الأفريقية، بادئة بالسيطرة على السواحل والجزر من أجل إقامة محطات تجارية وتموينية من أجل الوصول إلى مستعمراتها في الشرق الأقصى والهند.

ومنذ القرن الثامن عشر ميلادي، بدأت تلك القوى في التوغل داخل القارة الأفريقية متمثلة في الاستعمار البرتغالي، الهولندي، البريطاني، الفرنسي، الألماني، الايطالي، والبلجيكي.

وشكل مؤتمر برلين المنعقد عام 1885م، بداية التسابق الامبريالي على أفريقيا وتقسيمها إلى مناطق نفوذ[5].

ومع بدايات القرن العشرين، تمكنت تلك الدول من السيطرة الاستعمارية الكاملة على معظم أجزاء القارة الأفريقية، مما أدى إلى تمزيق تلك القارة .

لقد لجأت هذه الدول منذ البداية إلى حركة التبشير بالدين المسيحي ليس كفاية، بل كان كوسيلة مضللة، كمحاولة لكسب رضا أهل البلاد للتمهيد للسيطرة على مقدرتهم وثرواتهم، من خلا ل ربطهم بثقافاتهم أو ما أطلق عليه ثقافة الرجل الأبيض[6].

هذا ما أكد عليه (موندلان ايدو)،حيث قال في كتابه المعنون "الكفاح من أجل موزنبيق"،كان المبشرون يستولون على الأرض من أصحابها، فهؤلاء المبشرون يأتون إلى أفريقيا وفي أيديهم الإنجيل، و الأفارقة في أيديهم الأرض وسرعان ما تصبح في أيدي الأفارقة الإنجيل وفي أيدي هؤلاء الأرض[7].

لقد وجّه الزعيم الأفريقي (كبذتكاوندا) رسالة إلى الكنيسة المسيحية في رودسيا الشمالية نشير إلى ما جاء فيها " إن الكنيسة المسيحية في رودسيالا تدرك الخطر الداهم المحدق بها، فقد

فشلت هذه الكنيسة في ممارسة ما تبشر به، عن الإخاء وعن بنوتنا الروحية لله، وعن انعدام الفوارق العنصرية واللونية، ثم يجئ دور التطبيق فنجدها تسير في ركاب الراعين إلى التفرقة العنصرية وتفوق البيض على السود، وقد لمس آلاف الأفريقيين في بلادي ذلك عن الكنيسة فبدأوا يتخلون عنها وعن دعوتها"[8].

وبالفعل مارست القوى الاستعمارية كافة أشكال الاستغلال والقمع والقوة على أهل القارة الأفريقية لخدمة ما سموا بالسادة البيض، وأصبحت تلك القارة تعيش محنة الواقع الذي فرضه الاستعمار .

مما دفع الشاعر الهندي (رابندرانات طاغور) إلى إطلاق صرخة احتاج قائلاً له

بمصائد البشر .....

تسللوا إليك وانفضوا أوليك الصيادون ..

الذين فاتت قسوتهم ظلمة غاياتك ..

فصار اثر جدك المسحوب في الغابة موصلاً بالدمعي ...والدم.....

وحرصت تلك الدول الاستعمارية في القضاء على المقومات الأساسية لدول القارة، وعلى رأسها: الثقافات واللغة الوطنية، فأصبحت لغة المستعمر هي اللغة الرسمية في البلاد المستعمرة،تدرس تاريخ المستعمر وحضارته في مدارسها الأفريقية، فخرجت أجيالا لا تعرف

ولا حضارة ولا حتى لغتها الأم، وحتى تظل تلك الشعوب تحت رحمة الثقافة الاستعمارية، أغرقوا البلاد بصحافتهم وأفلامهم وأدبهم وسلطوا إعلامهم المدمر الهادف إلى إفساد عقول الأفارقة[10].

عليه يتضح لكل ذي بصيرة أن المشكلات الثقافية، ليست أقل خطراً من المشكلات السياسية والاقتصادية التي عانت منها شعوب القارة الأفريقية ومازالت، انظر ما نره في المغرب والجزائر وتونس حيث تستخدم اللغة الفرنسية في معظم المجالات وتغيب اللغة العربية لدرجة أن وزير الخارجية الجزائري تكلم في الأمم المتحدة باللغة الفرنسية ولم يستخدم لغته الأم .

ولم يكتف الاستعمار بمحاولة طمس الثقافة الأفريقية فقط بل أنه أخذ يعمل بعدة سبل كي يحمل سكان البلاد على الاعتراف بتخلف ثقافتهم .

نضرب مثلاً على ذلك هو ما قامت به فرنسا تجاه الملك الكمروني (نويا) الذي ابتكر كتابه (بامو) عام 1896م، استخدمها في إسباغ الروح العصرية على الإدارة ونشر التعليم في مملكته، كذلك ألف مجموعة من الكتب بنفس اللغة ومن هذه الكتب : كتابه عن الأملاك الزراعية في مملكته، وكتابه في تاريخ وعادات أهل بامو، وكتب أخرى في الطب والصيدلة، وافتتح عدداً

من المدارس في مختلف أنحاء مملكته، بلغ عددها عام 1907 في منطقة واحدة هي (نوميان) سبع وأربعين مدرسة، وتمكن أحد المواطنين ويدعى (نيموتجا) من اختراع مطبعة [11].

يبدو أن هذا الملك الكمروني أراد خلق ثقافة وطنية في بلاده وبناء الشخصية السوية .

فماذا كان رد الاستعمار الفرنسي لتوجهات الملك الكمروني، أغلقت تلك المدارس ودمرت تلك المطبعة وأحرقت الكتب وسجن الملك[12] .

وهذا ما كان يقوم به الاستعمار الأوروبي في كل أنحاء القارة الأفريقية حتى لا ترقى شعوب القارة إلى المستوى الثقافي والحضاري الذي يمكنها من كشف الدور الخبيث له والقيام بالثورة عليه.

المبحث الثاني : دور الثقافة العربية والإسلامية في نشر الوعي القومي الأفريقي:

لعبت الثقافة العربية الإسلامية دوراً ظاهراً ومؤثراً في نشر الوعي القومي الأفريقي، السياسي والثقافي والتحرري، كما قدمت البديل للثقافة الغربية الاستعمارية الدخيلة على القارة الأفريقية .

وكانت الثقافة العربية الإسلامية إحدى عوامل اليقظة القومية خلال نشوء حركات التحرر الوطنية ضد الاستعمار في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وظلت كذلك إبان حركات النضال من أجل انعتاق شعوب تلك القارة واسترجاع سيادتها .

وكان لحصول معظم دول أفريقيا العربية على استقلالها، أثر كبير على معظم بقية دول القارة، مما مكنها من أن تلعب دوراً مهما في دعم حركات التحرر الأفريقية من خلال المؤسسات التعليمية والثقافية ونشر الوعي القومي، فقد جاء عدد من الأفارقة لدراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية وعاد هؤلاء إلى بلادهم بعد إتمام دراستهم ومنهم شغل مناصب عليا في كافة المجالات، مما ساهم في إزالة آثار التخلف الاجتماعي والثقافي التي خلفتها القوة الاستعمارية،(13)

وكانت لدول شمال أفريقيا العربية دوراً بارزاً لتعميق الصلات التي ربطت الأمة العربية بالشعوب الأفريقية وقد عبر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عن ذلك في كتابه "فلسفة الثورة" فقال: "إننا لا نستطيع بأي حال أن نقف بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذي يدور اليوم في أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الأفريقيين، ولن نستطيع أن نتخلى عن مسؤوليتنا في المقاومة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء [14]

مؤتمر باندونغ وتعزيز العلاقات العربية – الأفريقية:

لعب مؤتمر باندونغ المنعقد في أبريل 1955م دوراً كبيراً في تعزيز العلاقات العربية – الأفريقية على عدة مستويات ومنها الثقافية، ما أدى إلى المزيد من عقد المؤتمرات واللقاءات على المستويين الرسمي والشعبي.

وفي مؤتمر الدار البيضاء بالمغرب عام 1961م، وضع الأساس المتين للتعاون الثقافي، حيث تكونت في هذا المؤتمر اللجنة الثقافية الأفريقية، وقد تألفت من وزراء التربية والتعليم أو من ينوب عنهم من أجل تعزيز العلاقات الثقافية والاجتماعية بين دول المجموعة.

وفي عام 1966م التقت عدد من الدول العربية في المهرجان العالمي الأول للفن الريغي في السنغال حيث برزت فيه جذور الحضارات العربية – الأفريقية، وبحث هذا المؤتمر في الأصول المتجددة لهذه الحضارات[15].

كما ضمت الجامعات العربية، ككلية الدعوة الإسلامية ليبيا وجامعة الأزهر والقاهرة عدداً كبيراً من الطلبة الأفارقة، واهتمت من خلال مناهج التدريس بالعلاقات مع الدول الأفريقية، والتأكيد على الشخصية الأفريقية والإسهام في دراسة المشاكل الثقافية والاجتماعية، كمشاكل التعليم والقضاء ونقل التكنولوجيا الحديثة لنخبة المجتمعات الأفريقية، بهدف الوقوف ضد الثقافات الاستعمارية في أفريقيا.

وعقدت الجزائر عدة اتفاقيات للتعاون الثقافي والفني مع الدول الأفريقية الناطقة باللغة الفرنسية مثل: مالي، غينيا، النيجر، السنغال وغيرها، واستضافت الجزائر بعض المهرجانات الثقافية الأفريقية كالمهرجان الثقافي الأول عام 1969م، والمؤتمر التأسيسي لمنظمة الشباب الأفريقي، مما عزز الوعي بالشعور الوطني ومحاولة التخلص من التسلط الاستعماري.

وأخذت الجامعة العربية تمارس وظيفتها الإعلامية والثقافية من خلال الإدارة العامة للإعلام التابعة لها مسلطة الضوء على مسيرة التعاون "العربي – الأفريقي" باتخاذها المواقف الإيجابية ضد النظم الاستعمارية والعنصرية التي كانت سائدة آنذاك في جنوب أفريقيا وروسيا وغيرها.

وخلال عامي 1975/1974م، قامت الجامعة العربية بإيفاد المبعوثين إلى الدول الأفريقية كالوحدات الإعلامية، وفي فبراير 1975م عقدت الندوة (العربية – الأفريقية) في تونس لتعزيز الاتصالات الجماعية والثنائية بين أجهزة الإعلام الغربية – الأفريقية وتحريرها من هيمنة وكالات الأنباء الإمبريالية العالمية.

وفي ندوة التحرر والتنمية التي عقدت في الخرطوم عام 1976م، أكدت على وجوب تعزيز بين أجهزة الإعلام العربية والأفريقية، وتعزيز العلاقات الثقافية والاجتماعية وتوقيع الاتفاقات المشتركة حول تبادل البعثات والمنح الدراسية وبرامج التدريب العمالي والنقابي وإقامة المهرجانات من أجل توثيق الاتصالات الثقافية والتربية[16].

لكن هل هذه الجهود كافية أمام ما تقوم به المؤسسات الاستعمارية وحليفتها الحركة الصهيونية؟

نقول أن التعاون العربي – الأفريقي مازال يحتاج إلى جهود واسعة تتمثل على الصعيد الثقافي ما يلي:

أ- يتطلب زيادة المنح الدراسية والتدريبية ودعوة الأساتذة والمفكرين والأدباء الأفارقة لزيارة العواصم العربية وإلقاء المحاضرات على أن يتم العكس.

ب- تبادل الكتب والدوريات أو غيرها مع الدول الأفريقية، بالإضافة إلى المناهج والدراسات العلمية المتنوعة.

ج- إقامة المؤتمرات والندوات الثقافية والعلمية ودعوة الطلبة والأساتذة والباحثين الأفارقة للحضور والمشاركة والمناقشة.

د- عقد الاتفاقات الثقافية من أجل زيادة التعاون الثقافي بين العرب والأفارقة.

هـ- دعم الدور الذي تلعبه كليات العلوم السياسية والإعلام في الوطن العربي وأفريقيا.

و- رفع الكفاءات البشرية من خلال برامج مهنية متخصصة.

ز- الاهتمام بالمراكز البحثية المتخصصة في الشأن الافريقي .

المبحث الثالث: حركات التحرر الأفريقية والثقافية الأفريقية:

تعرض الأفارقة لأبشع أشكال العنف والاستغلال خلال فترة وقوعهم تحت سيطرة الاستعمار، وكان النمو الوعي الثقافي أثر كبير في الشعور بالاعتزاز والتراث الحضاري والتاريخ الأفريقي، بل وحتى الاعتزاز بلونهم الأسود وعاداتهم.

وبدأ الفنانون والشعراء يعبرون عن هذا الاعتزاز الأفريقي من خلال الفن والشعر[17] والمتمثل في الأصالة والحداثة.

وساهم الأفارقة خارج أفريقيا، والذين كانوا يعانون الاضطهاد أيضاً وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، فتعاونوا فيما بينهم للدفاع عن كيانهم كأفراد وكأمة، وربلوا نضالهم من أجل التحرر مع النضال من أجل العودة إلى قارتهم الأفريقية وتحريرها، وتكوين كيان أفريقي مستقل.

ورب قائل يقول: هل الكفاح التحرري ظاهرة ثقافية؟

نحن نعتقد أن الكفاح المنظم الواعي الذي يخوضه شعب من الشعوب لاسترداد سيادته هو أكمل مظهر ثقافي ممكن، وأن نشوء الشعور القومي في أي بلد أفريقي، يجب أن يكون متصلاً بالشعور الأفريقي عامة، وأن مسؤولية الأفريقي تجاه ثقافته القومية، يجب أن تكون أيضاً مسؤولية تجاه الثقافة الأفريقية عامة، وهذه المسؤولية ليست ثمرة مبدأ ميتافيزيقي (غيبي) بل ثمرة إدراك لواقع يؤكد على: "أن كل أمة مستقلة في أفريقيا؛ ستظل مطوقة تتربص بها الأخطار في كل لحظة إلى أن تتحرر أفريقيا كلها من الاستعمار، لأن أفريقيا مهما أعلنت للعالم بصوت عال استقلالها وحريتها، فإنها ستظل في الحقيقة فريسة لقوى الاستعمار الجديدة[18].

وتمكن دعاة هذا الفكر من الأفارقة من عقد مؤتمرات أفريقية خارج القارة وداخلها، وكان لهذه المؤتمرات أثر بالغ في نمو الوعي الثقافي ومنها:

أ- عقد المؤتمر الأول في لندن 1919م، في الفترة ما بين 23 حتى 25 يوليو من نفس العام:

حضره ثلاثون مندوباً كان معظمهم من الأفارقة المقيمين في الولايات المتحدة الأمريكية وحدد هذا المؤتمر أهدافه كالتالي:

1- العمل كمنبر للمعارضة ضد تعسف المستعمرين البيض.

2- الالتماس من البعثات التبشيرية وجمعيات تحريم الرف البريطانية حماية الأفارقة من حيث النهب الاستعماري.

3- حيث السكان من الأصل الأفريقي في العالم للتقارب وإقامة علاقات أخوية متينة بين كافة العناصر الأفريقية.

4- العمل من أجل سلامة العناصر الأفريقية التي تعيش في الأقطار المتحضرة وحماية حقوقهم الكاملة ومصالحهم وأعمالهم.

ب- المؤتمر الثاني في نيويورك 1920م:

طالب هذا المؤتمر بتشريع القوانين العادلة التي تساوي الأفارقة مع البيض في المستعمرات وأن تنشئ عصبة الأمم، مكتباً دائماً مهمته الإشراف على تنفيذ القوانين لصالح الوطنيين، وطالب بإنصاف الأفارقة من الناحية الاقتصادية وتوزيع الأراضي وتوزيع الدخل وإلغاء العبودية في العمل، وحق التعليم وحق الأفراد الاشتراك في الحكم.

ج- مؤتمر الجامعة الأفريقية:

عقد في لندن عام 1921م، وكان المطلب الرئيسي له هو إقامة حكم ذاتي للجامعات الأفريقية المتطورة، يزداد بازدياد خبرتهم ومعرفتهم حتى يصبح حكماً ذاتياً.

د- مؤتمر الجامعة الأمريكية الرابع:

طالب هذا المؤتمر أن يعامل الجنس الأسود في العالم كبشر.

هـ- مؤتمر الجامعة الأفريقية الخامس:

عقد في يونيو 1927م بنيويورك وكانت مطالبه كمطالب المؤتمرات السابقة.

عادت حركة الجامعة الأفريقية إلى الوطن عام 1958م وكان لها برنامج عمل يتلخص فيما يلي:

1- أفريقيا للأفريقيين.
2- قومية أفريقية تحل محل النظام القبلي الماضي.
3- النهوض بالاقتصاد القومي للدول الأفريقية.
4- نبذ العنف كوسيلة من وسائل الكفاح.
5- تضامن الشعوب السوداء في كل مكان.
6- الحياد الإيجابي.

كما عقدت عدة مؤتمرات ركزت على التعاون السياسي والدبلوماسي والاقتصادي والعلمي والفني.

المبحث الرابع: المثقفين الأفارقة في كشف مخططات الاستعمار الجديد:

بعد الحرب العالمية الثانية (1939-1945) نالت معظم شعوب العالم التي كانت ترزح تحت وطأة الاستعمار ومنها شعوب القارة الأفريقية، إلا أن مخلفات الاستعمار بقيت فقد رحل الاستعمار التقليدي من الباب ليعود في ثوب جديد من الشباك.

وتبدو مظاهر الاستعمار الجديد في كثير من الدول الأفريقية، حيث استطاع أن يضع حكاماً كالدمى يحركهم من خلف ستار وكان هؤلاء الحكام الجدد نموذجاً للفساد قد ورثوا من المستعمرين أبشع صور البيروقراطية.

ولقد لجأت قوى الاستعمار الجديد، اتباع سياسة تخريبية، ظاهرها الرحمة تتمثل في شكل تقديم المساعدات أو المعونات والتشكيك في إمكانية النجاح الذاتي للدول الأفريقية عن طريق ترشيد مواردها المتاحة وتسخير إمكاناتها للاستقلال الفعلي.

من هنا يأتي دور المثقفين الأفارقة ليكون الواجب الأول أمامهم هو كشف مخططات المستعمرين وأعوانهم، مستغلين تقدمهم الثقافي وتمرسهم بمناهج البحث العلمي ووسائله.

وبالفعل ساهم عدد من المثقفين الأفارقة في زيادة الوعي الثقافي والسياسي، كشعوب القارة، ومن هؤلاء الكتاب:

- الكاتب الأفريقي "أزكيلمناهليلي"، الذي حرض على كسر الطوق الذي فرضه المستعمر كحاجز اللون فنجده يقول: "في جنوب أفريقيا بلغ إحساس الحكم العنصري بخطورة الإبداع الخلاف للجماهير، وخاصة في مجال الشعر، أن أقدمت السلطة المستبدة على شنق العامل "نيوزيللي ميني" الذي كان يؤلف أناشيد الحرية"[19].

ويتحدث الزعيم الأفريقي كاوندا عن موضوع الحاجز اللوني في روريستا فيقول: أنه حديث أقرب إلى الخيال منه للحقيقة، ويحكى أنه كيف دخل مرة أحد المتاجر الأوروبية وطلب شيئاً، مستعملاً اللغة الإنجليزية، فما كان من صاحب المتجر إلا أن طرده قائلاً له: أخرج أيها القرد الأسود[20].

وهو يسرد ذلك، ليكذب المفاهيم الثقافية الاستعمارية التي تصور المستعمرين على أنهم رسل خير ورجال علم وأصحاب مبادئ قائمة على التسامح والمحبة والمساواة، لكن أين كل هذه الادعاءات من الواقع والممارسات؟

أما الشاعر والأديب الموزمبيقي "مارسلينودوس سانتوس" فقد حرص على أن تكون القصيدة على لسانه في قوة الرصاصة، وكان يوجه قصيدته، كما يوجه البندقية.

وقد حاول البرتغاليون، تعميم لغتهم وطمس معالم الشخصية الوطنية الموزمبيقية، على الرغم من أن هؤلاء المستعمرين لم يكونوا يشكلون سوى 2% يشعرون بالاستعلاء على المواطنين.

مما ولّد ردود فعل عنيفة بين السكان وإنما شعورهم القومي، عبروا عن ذلك بالأغاني والرقصات، واتجه الشعراء والفنانين إلى التعبير عن مشاعرهم وآلامهم الوطنية عن طريق الفن والشعر[21].

فعبّر سانتوس في قصيدته: "الأرض تمين، عن حكاية العمال من بني قومه، كيف يتعرضون للموت، وأخذ يحرض بني جلدته على استعمال العنف لطرد الغاضبين[22]، فاتسع الشعور القومي بحيث أخذ تحركاً وانتفاضات عنيفة.

وفي جنوب أفريقيا بلغت العنصرية أقصى مداها، وكرسوا أقصى ما لديهم من وسائل إعلامية من أجل استبعاد السود مدعين كذباً أن الله هو الذي أعطاهم هذه البلاد وستبقى لهم وحدهم[23].

فخصصت الحكومة الاستعمارية البريطانية منذ قدومها إلى جنوب أفريقيا، تعليم أولاد الأوروبيين وحرمت المواطنين من التعليم، مما دعا الأديب الأفريقي "الكس لاجويا" إلى التحريض على الثورة فقال: "أنا عندما اكتب عملاً من أعمالي، من أن الفقراء في جنوب أفريقيا يضطرون إلى شراء الماء ذاته من مستغليهم، فأني أفعل ذلك بأقل أن يتأثر قارئ كتابي إلى الحد الذي يجعله يفعل شيئاً حيال أولئك اللصوص الذين حولوا بلادي إلى فقر مادي وثقافي بالنسبة للسواد الأعظم من السكان[24].

وكان لاجوما يؤمن بأن قلم الكاتب قادر على استنفار الآخرين حتى يثوروا من أجل تغيير الواقع المعاش، ثم أشار إلى أن الاستعمار عاش عدة قرون في بلاده ولابد من طرده.

هكذا نجد أن تلك العبارات تزرع في نفوس المواطنين ثقافة مغايرة تماماً لثقافة المستعمر، أنه يقول لمواطنيه لابد من استخدام العنف الثوري لانتزاع الاستقلال.

وقد وجه إلى لاجوما أثناء حضوره مؤتمراً في استكهولم، السؤال التالي: هل ينبغي للكتاب أني يتفرغوا للكتابة والإبداع الفني فقط، أم يشاركوا أيضاً في الكفاح المسلح؟

أجاب بطريقة هادئة، يكفي للإجابة على هذا السؤال أن أقول "إن الكتاب والشعراء الفيتناميين كانوا يقومون بكلا العملين معاً"[25].

وقد أكد الأديب الكيني (جيمس نجوجي) على أهمية الدور الريادي للمثقفين والكتاب في مقاومة التسلط الثقافي الاستعماري، فأشار إلى أن الكاتب ضمير شعبه والهادي لجماهير أمته في نضالها من أجل غد أفضل، وأنه المسؤول عن تسليط الأضواء على مشاكل قومه وخلق الأفكار التي تؤدي إلى حل تلك المشاكل[26]، وطالب بنظرية جديدة للأدب تكون قادرة على أن تخلق من الكاتب والقارئ معاً لمواجهة هذا الغزو الدخيل ومحاربته، لأنه موجه بالدرجة الأولى إلى العالم الثالث (الدول النامية) من خلال المؤسسات الصحفية والإذاعية والسينمائية ودور النشر والجمعيات والمؤسسات الثقافية التابعة لهؤلاء المخططين لهذا الغزو.

وطالب نجوجي بحكم رئاسته للجنة الثقافية في المؤتمر الخامس للكتاب الآسيويين والأفريقيين، طالب بأن يقام دار نشر "أفريقية – آسيوية" لنشر الأفكار التقدمية.

بالإضافة إلى ذلك فإن عدداً من الكتاب الأفارقة ركزوا اهتماماتهم بالتراث الأفريقي ومحاولة إظهاره ومنهم على سبيل المثال لا الحصر "شينوا أتشيبي" نيجيري كتب كتاباً تحت

عنوان: "إعادة تفسير التاريخ الأفريقي، وكرسي جل وقته وقلمه للتخلص من آثار الاستعمار في بلده وللتمهيد لميلاد قيم سياسية واجتماعية جديدة، ليس في نيجيريا وحسب بل أيضاً في جميع مناطق القارة الأفريقية"[27].

كذلك نهج المفكر الفاني (كوني أوويز) الذي يرى أثر حل مشاكل أفريقيا تأتي من خلال الشعر المنظوم والمنشور.

خاتمــة

من خلال استعراضنا للصراعات المستمرة بين الثقافات الأفريقية والتسلط الاستعماري، لابد من ثورة ثقافية عنيفة تتسق من الأساس كافة التبريرات الاستعمارية الأوروبية والأمريكية والصهيونية، تلك التبريرات التي تسمح لهم بالتدخل في شؤون القارة، وتقوي في الوقت نفسه على التخلص من كافة المعوقات في ذات الإنسان الأفريقي.

وتصنع أمامه حقيقة منتسبة إلى تاريخه وأصالته فهذا يمكنه من رؤية صحيحة لواقعه، ويضع أمامه أسلوب التعامل مع هذا الواقع من أجل بناء إنسان جديد يدرك مكانه وبسط معالم القويمة.

وعلى المثقفين واجبات تلزمهم أن يكونوا في خدمة الجماهير وخدمة قضاياهم القومية، وأن يكونوا على صلة وثيقة بالجماهير ومشاركتهم آمالهم وآلامهم.

وتجدر الإشارة إلى أن تاريخ حركة الصراع بين الثقافة الأفريقية والتسلط الاستعماري، كما في باقي المادين الأخرى تحتاج إلى تسجيل وكتابة ودراسة واعية لتسترشد دول وشعوب القارة بدروس الماضي وهي تخطط لحاضرها ومستقبلها.

هوامش البحث

1- محمد عبد الله المنيع وعبد الرحمن سبيتا، السياسة الثقافية في المملكة العربية السعودية، باريس، منظمة اليونسكو، 1980م، ص9.
2- سيد أحمد بغلي، جوانب من سياسة الجزائر الثقافية، باريس، منظمة اليونسكو، 1980م، ص69.
3- بشير الهاشمي، حرب الكتب، ط1،طرابلس، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، 1984م، ص ص12، 13.
4- انطوان المقدسي، التحديث والتغريب في مواجهة الغزو الثقافي، مجلة الوحدة، الرباط، ع3، ديسمبر 1984م، ص8.
5- John. O, Hargereaves, prelade to the partition of west Africa, London, 1961, pp329-330.
6- عصام محسن الجبوري، العلاقات العربية الأفريقية، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1981م، ص71.
7- MondianeEivarda, the struggle for Mozambique, London, 1970, p35.
8- كينيتكاوندا، زامبيا في سبيل التحرر، ترجمة حسين الحوت، الساحل، الدار القومية للطباعة والنشر، د.ت، ص72.
9- عبد العزيز صادق، نافذة على أفريقيا، القاهرة، دار المعارف، 1983م، ص7.
10- أوسندي أفانا، عقبات أمام الكتاب الأفريقيين، مجلة الكاتب، القاهرة، ع12، مارس 1962م، ص ص15-16.
11- المرجع نفسه، ص ص14، 15.
12- المرجع نفسه، ص15.
13- عصام محسن الجبوري، مرجع سابق، ص72.
14- جمال عبد الناصر، فلسفة الثورة والميثاق، بيروت، دار المعرفة – دار القلم، ط1، 1970م، ص ص108-109.
15- المرجع نفسه، ص47.
16- عبد الرزاق مطلك الفهد، حركة التحرر الوطنية الأفريقية، الموصل، مطابع جامعة الموصل، 1985م، ص18.
17- فرانزفلنون، معذبو الأرض، ترجمة: سامي الدروبي وجمال الأتاسي، ط1، بيروت، دار القلم، 1972م، ص18.
18- عبد العزيز صادق، نافذة على أفريقيا، القاهرة، دار المعارف، 1982م، ص ص12، 13.
19- كينت كاوندا، مرجع سابق، ص ص3، 4.
20- عبد الرزاق مطلك الفهد، مرجع سابق، ص97.
21- عبد العزيز صادق، مرجع سابق، ص ص24-29.
22- عبد الرزاق مطلك الفهد، مرجع سابق، ص96.
23- عبد العزيز صادق، مرجع سابق، ص ص71-77.
24- المرجع نفسه، ص80.
25- المرجع نفسه، ص81.
26- المرجع نفسه، ص112.

واقع وتحديات القوة الناعمة: ليبيا أنموذجا

أ -محمد سالم محمد بن سعيد
أستاذ محاضر، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة مصراتة

مقدمة الدراسة :

تعتبر العلاقات الدولية ميدانا واسعاً تمارس فيه الدول قدراتها في التأثير والتأثر بعضها على البعض مستفيدة من مصادر قوتها المختلفة من اجل الوصول إلى النتائج والأهداف المرجوة لكل طرف. وقد شهد هذا الميدان على مر التاريخ صعود وهبوط دول وأمم كثيرة، بعضها ظهرت على مسرح الأحداث بسرعة وغابت دون أن تترك تأثيرا عميقا، وبعضها الآخر اخذ حيزا زمنيا طويلا كان فيه هو اللاعب الرئيس أو من اللاعبين الرئيسيين، بل –أحيانا- بقي تأثيره ودوره عالقا في الذاكرة البشرية، وفي التأثير المتبادل بين الشعوب إلى الوقت الحاضر.

والسبب في هذا التفاوت في التأثير بين اللاعبين الدوليين هو الوزن النوعي لكل لاعب، وهذا الوزن لا يعتمد على القوة المجردة القسرية (عسكرية – اقتصادية) أي قوة الترغيب والترهيب، وإنما يعتمد أيضا بدرجة كبيرة على القوة الناعمة قوة المبادئ والقيم التي يحملها، فتجعله نموذجاً جاذبا يأسر قلوب وعقول الآخرين، مما يدفعهم ويجعلهم يشعرون برغبة وإرادة في التشارك مع صاحب هذا النموذج في قيمه ومبادئه، ما يعني في النهاية إيجاد الأرضية لقبول التعاون معه في تحقيق أهدافه أو عدم اتخاذه عدوا يجب تدميره والتخلص منه.

أهمية الدراسة :-

إن قوة القيم والمبادئ هي جزء مما يطلق عليه اليوم اسم القوة الناعمة، وهذه القوة تشكل مع قوة القسر (القوة الصلبة) المعيار النهائي لقوة الدولة الشاملة، وقد ازداد تأثير هذه القوة مع زيادة التطور التكنولوجي والمعرفة الإنسانية، وتقارب الشعوب بعضها من بعض، وكما انه لا يمكن لطرف ما يرغب في تحقيق أهدافه الدولية أن ينجح في ذلك بمعزل عن ما يمتلك من مقومات القوة الشاملة بشقيها (الناعمة والصلبة)، كذلك فان الافتقار إلى هذه المقومات أو لأحد شقيها يجعله ضعيفا عديم التأثير في الآخرين، ومسلوب الإرادة في حماية ذاته. وهذا الواقع الدولي يواجه كل العالم، ومنها ليبيا، مما يتطلب منها أن تركز في بناء قوتها على امتلاك كلا

القوتين (الناعمة والصلبة) إذا أرادت أن تحمي نفسها وشعبها من تأثير الآخرين، وأرادت أن تجعل لنفسها دورا فاعلا في المسرح الدولي.

مشكلة الدراسة:

إن الإشكالية التي تنشغل بها هذه الدراسة تركز على تحديد ما نعنيه بالقوة الناعمة؟ وكيف تؤثر هذه القوة في ميدان العلاقات الدولية؟ وما هو واقع تأثيرها السلبي أو الايجابي في ليبيا ؟ وكيف يمكن توظيفها استراتيجيا للوصول إلى رغباتها وأهدافها ؟

فرضية الدراسة :-

تنطلق الدراسة من فرضية مفادها أن ليبيا في الوقت الحاضر تمر بعملية إعادة تشكيل في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، التي تلعب فيها القوة الناعمة دور المحرك الرئيس، ولكن المطلوب منها امتلاك الموارد الكافية من القوة الناعمة لجعلها تصب في مصلحتها بدلا من أن تصب في مصالح أعدائها أو منافسيها.

منهجية البحث:

اعتمد البحث على منهج التحليل الوصفي لاختبار صدق فرضيته، والوصول إلى نتائجه النهائية.

هيكلية البحث

تم وضع خطة للدراسة، تقوم على تقسيمه إلى مطلبين: المطلب الأول هو تحديد للإطار النظري للموضوع، فينشغل بماهية القوة الناعمة من حيث التعريف، والموارد، والأهمية في ثلاثة محاور. أما المطلب الثاني، يتم من خلاله التركيز على واقع القوة الناعمة –ليبيا نموذجا، وتأثيرها الإيجابي والسلبي، وكيفية توظيفها استراتيجيا لتحقيق الأهداف. كما تضمن البحث على المقدمة والخاتمة.

المطلب الأول: ماهية القوة الناعمة

ينشغل هذا المطلب بتوضيح القوة الناعمة من مختلف جوانبها، لذا فان الأسئلة الرئيسة التي يدور حولها تركز على: ماذا نقصد بالقوة الناعمة؟ وما هي مواردها أو مقوماتها التي ترتكز عليها؟ وكيف تعمل هذه القوة لتكون مؤثرة وفاعلة في ميدان العلاقات الدولية؟ ولماذا تختلف عن بقية أشكال القوة؟

المحور الأول: تعريف القوة الناعمة

على الرغم من كثرة الدراسات والأبحاث والمهتمين بتعريف القوة في ميدان العلاقات الدولية، تبقى القوة تعني قدرة طرف ما على التأثير في طرف آخر لحمله على تنفيذ إرادته؛ لما يمتلكه من متغيرات ثابتة ومتغيرة تسمح له بالوصول إلى هذه النتيجة المرغوب بها، علما أن أفضل الوسائل للحصول على إذعان الآخرين هي اقلها كلفة وأكثرها تأثيرا.

واستنادا إلى هذا الفهم العام للقوة يمكن الانطلاق نحو تحديد المقصود بالقوة الناعمة، إذ أن مصطلح القوة الناعمة من المصطلحات المعاصرة في الأدبيات السياسية، فقد بدأ تداوله تقريبا منذ نهاية عقد الثمانينات من القرن العشرين، وجاءت التسمية متأثرة بالتطور التكنولوجي العالمي لاسيما في مجال تقنيات الحاسوب؛ ولكن تكاد اغلب الدراسات البحثية ترجع الفضل في انتشاره إلى الكاتب الأمريكي جوزيف ناي، الذي شغل مراكز مهمة في الإدارة الأمريكية، وعد نفسه مخترعا لهذا المصطلح. (1)

يذكر ناي انه بدأ بتطوير مفهوم القوة الناعمة لأول مرة عام 1990 من خلال كتابه (ملزمون بالقيادة) ثم عاد إليه عام 2001 من خلال كتابه (مفارقة القوة الأمريكية).

ولقد أراد الابتعاد عن التصور التقليدي لقوة الدولة الذي يرتكز على قدراتها العسكرية والاقتصادية التي يسميها ـ"القوة الصلبة" بابتداعه لتصور جديد أوسع مدى يقوم على "القوة الناعمة أو الطرية" كما سماها في كتابه (مفارقة القوة الأمريكية)، وقد بين في هذا الكتاب "أن القوة العسكرية والقوة الاقتصادية معا مثالان على القوة الصلبة الآمرة التي يمكن استخدامها لإقناع الآخرين بتغيير موقفهم. فالقوة الصلبة يمكن أن تستند إلى محاولات الإقناع (الجزر) والى التهديدات (العصي).(2)

غير أن هناك طريقة غير مباشرة لممارسة القوة، فقد يحصل بلد ما على النتائج التي يريدها في السياسة العالمية؛ لأن بلدانا أخرى تريد أن تتبعه، معجبة بقيمه، تحذو حذوه، وتقتدي بمثاله، متطلعة إلى مستواه من الازدهار والانفتاح. وبهذا المعنى فان وضع جدول الأعمال في السياسة العالمية واجتذاب الآخرين إليه له أهمية تعادل تماما أهمية إجبارهم على التغير باستخدام الأسلحة العسكرية أو الاقتصادية أو التهديد باستخدامها. وهذا الجانب من القوة – أي جعل الآخرين يريدون ما تريده أنت-اسمه القوة الناعمة الطرية".(3)

ثم عمل ناي على تعريف القوة الناعمة بطريقة أكثر منهجية في كتابه (القوة الناعمة... وسيلة النجاح في السياسة الدولية) الذي صدر عام 2004 فعرفها على أنها " القدرة على الحصول على ما تريد عن طريق الجاذبية بدلا من الإرغام أو دفع الأموال. وهي تنشأ من جاذبية

ثقافة بلد ما، ومثله السياسية، وسياساته، فعندما تبدو سياساتنا مشروعة في عيون الآخرين، تتسع قوتنا الناعمة"، وأن " القوة الناعمة أكثر من مجرد الإقناع أو القدرة على استمالة الناس بالحجة، ولو أن ذلك جزء منها. بل هي أيضا القدرة على الجذب، والجذب كثيرا ما يؤدي إلى الإذعان"، لأنها " تستخدم نوعا مختلفا من العمل... لتوليد التعاون، وهو الانجذاب إلى القيم المشتركة، والعدالة، ووجود الإسهام في تحقيق تلك القيم".(4)

أن هذا الفهم للقوة الناعمة ارتكزت عليه معظم الآراء التي تناولت الموضوع فـ فرانك فايبرت ذهب إلى أن القوة الناعمة تشير إلى " تحقيق الأهداف الدولية عن طريق الإقناع والتعاون بدلا من استخدام القوة المسلحة أو العقوبات الاقتصادية وغيرها من أشكال الإكراه".(5)

ورأى غيره أنها "القدرة على التأثير وجاذبية الأطراف المعنية إلى المسار الذي يخدم مصالح الدولة وكيانها باستخدام الموارد المادية والمعنوية، بعيدا عن الإرغام والتهديد"(6)، وهي " القدرة على الاحتواء الخفي والجذب اللين بحيث يرغب الآخرون في فعل ما ترغب فيه القوة المهيمنة من دون الحاجة إلى استخدام القوة (الصلبة)... وإذا كانت القوة الصلبة تنبع أساسا من القدرات العسكرية والاقتصادية، فان القوة الناعمة تتأتى من جاذبية النموذج وما يمتلكه من قدرة التأثير والإغراء للنخب والجمهور على حد سواء...(و) كلما تضخم استخدام القوة الإكراهية (الصلبة) وضعفت شرعية مثل هذا الاستخدام يتضاءل معها النفوذ الثقافي والسياسي والتجاري وكل ما يدخل ضمن دائرة القوة الناعمة".

والقوة الناعمة وفقا لقاموس أكسفورد هي "منهج الإقناع في العلاقات الدولية المبني على استخدام النفوذ الاقتصادي أو الثقافي".

وهناك من رأى أنها "تلك الموارد الوطنية التي تسمح للدولة بالتأثير على الآخرين من خلال المشاركة في تحديد جدول الأعمال، والإقناع، وامتلاك قوة الجذب للحصول على النتائج المفضلة".(6)

استنادا إلى ما تقدم، يظهر أن هناك حالة من الفوضى في تحديد معنى القوة الناعمة بشكل دقيق، فمع الاتفاق على أنها تعني قوة الجذب والإقناع والقبول الطوعي بالإذعان للخصم الناجم عن قوة نموذجه، إلا أن الارتباك يبدو في تحديد مصادرها، فأحيانا يتم إخراج القدرة الاقتصادية لتكون من مصادر القوة الصلبة كما فعل ناي، وأحيانا أخرى يتم إدراجها ضمن مصادر القوة الناعمة كما فعل ألكسندر فوفنغ وآخرون.

ويعود السبب في ذلك حسب اعتقاد ألكسندر فوفنغ إلى أن القوة الناعمة تمثل مصطلحا واسعا وملتويا(غامضا)؛ لا زال في طور التأطير النظري، ولم يتحول إلى نظرية متكاملة

ومتماسكة، وينقصه البحث الأكاديمي العميق المعني بتطويره. فضلا على وجود درجة ما من الغموض التحليلي. (7)

ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن الذين تعاملوا مع الموضوع معظمهم كانوا متأثرين بسلوك الإدارة الأمريكية في العلاقات الدولية، مما جعلهم مسكونين بنزعة حب أو كراهية هذه الدولة، ولم يحاولوا التأمل بعمق أكثر في الفلسفة الكامنة وراء المناداة بضرورة تغليب دور القوة الناعمة في عصر العولمة والتطور التكنولوجي والمعلوماتي، لذا يلاحظ انه منذ انتشار الحديث عن القوة الناعمة داخل المؤسسات الحكومية والبحثية الأمريكية ومنها إلى العالم لم يسلم المصطلح من الانتقادات ومنها على سبيل المثال الانتقاد الذي وجهه له الباحث رفيق عبد السلام في بحثه القيم (الولايات المتحدة بين القوة الصلبة والناعمة) انطلاقا من كون الحديث عن القوة الناعمة يأتي في سياق تكريس مفهوم الهيمنة الأمريكية على العالم، وانه يمثل صرخة فزع لتحذير أمريكا من تراجع نفوذها العالمي شبيهة بصرخة الفيلسوف الألماني شبنجلر صاحب كتاب (سقوط الغرب) في عشرينات القرن العشرين التي حذرت من تراجع الهيمنة الغربية؛ وهي لا تختلف عن الرؤى التي حكمت صامويل هنتنغتون صاحب مقولة (صدام الحضارات)(8). فالغاية من الموضوع هي استمرار الهيمنة الأمريكية والغربية على العالم، وان الكلام عن الإقناع والجاذبية والإذعان الطوعي مجرد شكل آخر من إشكال الإكراه والهيمنة على الخصم. إن ما ذهب إليه الرأي أعلاه وأمثاله يتناسى حقيقة أن القوة الناعمة جاءت أصلا كرد فعل على تراجع التأييد العالمي للولايات المتحدة بعد حروب الخليج الثانية والثالثة وحرب أفغانستان من شخص يعمل في الإدارة الأمريكية ومعني كثيرا بالمحافظة على السيادة الأمريكية العالمية، وهو يؤكد على هذه الحقيقة في كثير من المقاطع في كتاباته(9)، ويحاول لفت نظر إدارته إلى المتغيرات المهمة التي يشهدها العالم على كافة المستويات لتراجع طريقة تفكيرها في تقييم موارد قوتها، كذلك جاءت لتعمل كنظرية - في طور التشكل- داخل ميدان العلاقات الدولية، وان قوة الدولة في هذا الميدان تقاس بقدرتها على جعل الخصم يفعل لها ما تريد- وهذا هو المهم- لكن الفرق هو أن الخصم تحت الإرغام المتولد من القوة الصلبة سيفعل لك ما تريد بالإكراه أو بالإغراء تحت تأثير مصادر القوة الملموسة: القوة العسكرية أو الاقتصادية، وقد يبقى متحينا للفرصة المناسبة لإظهار تمرده من اجل التخلص من حالة الإذعان، لأنه إذعان بالإكراه وغير طوعي. أما الإرغام المتولد من القوة الناعمة، فانه سيجعله يريد ما تريد أنت؛ بسبب قوة الانجذاب إليك، مما يعطيك القدرة للتأثير على سلوكه ليتناسب مع ما تريد الوصول إليه، وهذا سيجعل إرادته في دوام الإذعان أكثر تأثيرا وأوسع انتشارا وأطول عمرا. والفرق بين الهيمنة باستخدام القوة الصلبة المجردة، والهيمنة

باستخدام القوة الناعمة هي أن الأخيرة هيمنة بتكاليف أقل، ولمدة أطول. لذلك ذهب الباحث الألماني جون جاتونج إلى القول:" إن السيطرة الدولية لا تنفصل بأي حال من الأحوال عن آليات الترويض الثقافي والسياسي التي تستخدمها القوى الدولية الكبرى ضد من هو أضعف منها حظا من ناحية الاقتدار العسكري والاقتصادي... إن وجود نخب سياسية وثقافية (النخب القائدة أو المتحكمة) في الدول التابعة ذات تناغم مع مصالح وأولويات المراكز الدولية، وذات انسجام مع رؤيتها العامة صار يغني في الكثير من الأحيان عن الحضور العسكري المباشر".(10)

والسؤال المهم هنا، هو هل هناك فصل تام بين القوتين: الناعمة والصلبة من اجل بلوغ النتائج المرغوبة، أم أن الدولة بحاجة إلى امتلاك مصادر فاعلة في القوتين؟

يرفض ناي بشكل قاطع منطق الفصل بين القوتين؛ لأنهما بامتزاجهما الفعال يعطيان معنى للقوة الكلية للدولة، غاية الأمر انه يطالب بإيجاد مزيج من موارد القوتين-الصلبة والناعمة- يسمح بخلق جاذبية للدولة تتيح لها الحصول على الإذعان الطوعي من الآخرين، لذا نراه يقول:" القوة الصلبة والقوة الناعمة الطرية تتصل كل منهما بالأخرى ويمكن أن تقويتهما، فكلتاهما من جوانب قادران على تحقيق أغراضنا بالتأثير على سلوك الآخرين، وتستطيع مصادر القوة نفسها أحيانا أن تؤثر على طيف السلوك كله من القسر إلى الاجتذاب. فالبلد الذي يعاني انحطاطا اقتصاديا وعسكريا يحتمل أن يفقد قدرته على تشكيل جدول الأعمال العالمي، وكذلك جاذبيته"، "وبعض البلدان قد تنجذب إلى بلدان أخرى ذات قوة صلبة بواسطة أسطورة كونها لا تقهر، وكونها شيئا حتميا. ولقد حاول هتلر وستالين تطوير أساطير من هذا النوع".(11)

ولكي يوضح أكثر تصوره عن العلاقة بين القوتين يرى أن " كل منهما تشكل جانبا من قدرة المرء على تحقيق أغراضه من خلال التأثير على سلوك الآخرين. فالقوة الآمرة -أي القدرة على تغيير ما يفعله الآخرون- يمكن أن تستند إلى الإرغام أو الإغراء. أما القوة الانتقائية (الناعمة) -أي القدرة على تشكيل ما يريده الآخرون- فيمكن أن تستند على جاذبية ثقافة المرء أو عقيدته الأيديولوجية أو قدرته على التلاعب بجدول أعمال الخيارات السياسية لأنها تبدو بعيدة عن الواقعية أكثر من اللازم..."(وينتهي من هذا التفصيل لحدود العلاقة بين القوتين إلى التأكيد على أمر مهم جدا إلا وهو أن أرصدة القوة الصلبة هي بيد الحكومات فقط، أما أرصدة القوة الناعمة فمعظمها بيد المجتمع، أي أن المجتمع يشارك حكومته في مدها بمصادر القوة في علاقاتها الدولية.

وقد ابتدع ناي من هذا المزج الفعال بين القوتين ما أسماه القوة الذكية، ونصح واشنطن في الصفحة الأخيرة من كتابه (القوة الناعمة) بالقول: " نجاح أمريكا سوف يعتمد على تطويرنا

لتفهم أعمق لدور القوة الناعمة، وتطوير توازن أفضل للقوتين الصلبة والناعمة في سياستنا الخارجية. وتلك ستكون القوة الذكية. لقد فعلنا ذلك من قبل، ونحن قادرون على فعله مرة أخرى".(12)

وهناك-أيضا-سؤال ربما يراود الكثيرين، وهو هل أن القوة الناعمة موضوع جديد في العلاقات الدولية أم أن له جذورا تاريخية قديمة؟

من الخطأ الاعتقاد بأن التأثير في الآخرين بواسطة القوة الناعمة ظهر فجأة إلى عالم العلاقات الدولية في نهاية عقد الثمانينات، نعم قد تكون التسمية جديدة، لكن المضمون قديم جدا يمتد إلى البدايات الأولى لظهور الإمبراطوريات والدول على وجه الأرض، إذ نرى له وجود مثلا لدى معظم الحكام البارزين في بلاد ما بين النهرين منذ الألف الثالث قبل الميلاد- عند سرجون الأكدي وحمورابي البابلي، فهم عندما كانوا يبسطون نفوذهم على دول مختلفة في عباداتها وثقافاتها، كانوا يبقون على آلهتها ويظهرون التقدير لها، فضلا على احترام ثقافتها العامة، ويعمدون إلى التقريب بينها بالمصاهرة والقوانين الجامعة وحسن الإدارة وما شابه، في الوقت الذي يسعون فيه إلى تعزيز مصادر قوتهم العسكرية والاقتصادية، لذا لا غرابة أن تجد مثل هؤلاء الحكام استطاعوا تأسيس إمبراطوريات تمتعت بالسمو والصمود لفترة طويلة، على خلاف غيرهم من الحكام قليلي الحكمة وقصيري النظر.

كذلك تجد أثار القوة الناعمة لدى الإسكندر المقدوني منذ اللحظات الأولى لوضع إقدامه في البر الأسيوي في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، بما أظهره من حرص على تحقيق المزج الثقافي بين ثقافته الإغريقية الأوربية، والثقافات الأسيوية القديمة (مصر، بلاد فارس، بلاد ما بين النهرين، بلاد الشام وغيرها)، وفي رغبته في قيادة عالم متعايش ثقافيا يكون أنموذجا في الإدارة والحكم. فتركت مساعي الاسكندر في الجمع بين القوتين: الصلبة والناعمة تأثيرها العميق في ثقافات الشعوب الأسيوية، في الوقت الذي كان تأثير القوة الناعمة لهذه الثقافات عميقا على الاسكندر نفسه.

من خلال تتبع السيرة التاريخية للأديان السماوية التي شكلت في توسعها وانتشارها نموذجا مثاليا على القوة الناعمة استطاعت اختراق حصون أقوى الإمبراطوريات، واشد الثقافات انغلاقا، فالحملات العسكرية الإسلامية في القرن السابع الميلادي، لم تستند إلى قوة السيف فقط في انتشار الدين الجديد وانتصاره - ربما كان السيف في كثير من الأحيان مدعاة لانتقادات في شرعية استخدامه لا يمكن الجدال فيها، ولكن انتصارها الماضي كان في قوة القيم التي خلقت الجاذبية والإقناع بتفوق النموذج الذي يمثلها، ويكفي دلالة على قوة تأثير هذا النموذج انه أنهى

الوجود السياسي للإمبراطورية الساسانية في بلاد فارس (إيران حاليا)، وأعاد تشكيل مجتمعاتها ثقافيا ودينيا وحضاريا لتصبح جزء من عالم إسلامي تتفاعل معه سلبا أو إيجابا بطريقة تستنبط معاييرها وحججها من داخل الثقافة الإسلامية نفسها، كذلك كان الحال مع كثير من الأمم التي اعتنقت الإسلام لقوة قيمه، وجاذبية نموذجه. ونفس الشيء كان حال بقية الأديان مع اختلاف درجة التأثير بين دين وآخر.(12)

كما يمكن أن نلمح آثارا للقوة الناعمة في حملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشام (1798-1801)، فعلى الرغم من فشل الحملة عسكريا، بل وكانت أهدافها العسكرية مدعاة للانتقاد والكراهية، إلا أن تأثيراتها الثقافية والحضارية في المشرق العربي كانت سببا في تحريك العقل السياسي في المنطقة واتجاهه إلى طرح تساؤلاته المهمة عن أسباب تخلف أبنائها وتقدم غيرهم؟ ومدى صحة النظم التي حكمتهم لمدة طويلة من الزمن؟

إن التاريخ البشري يشهد وفي حقب كثيرة على أن القوى التي تمتعت بخاصية الجمع بين قوة صلبة فعالة وقوة ناعمة مؤثرة هي القوى التي حققت انتشارا أوسع، واستمرارا تاريخيا أطول، بل وبقيت آثار قوتها الناعمة فاعلة على المسرح رغم أفول قوتها الصلبة. أما القوى التي ركنت إلى قوتها الصلبة فقط في الحصول على الإرغام من الآخرين، فكانت سريعة الزوال، انظر على سبيل المثال تلك القوة المرعبة والمدمرة للمغول التي استطاعت أن تكتسح العالم سريعا وتقهر شعوبا كثيرة، إلا أنها في النهاية انتهت وزالت من الوجود ولم يعد العالم يذكر عن المغول إلا أنهم شعب بدائي لا يمتلك حظا من الثقافة والحضارة واحتاج في آخر المطاف إلى الذوبان في ثقافة الآخرين، قد يكون القادة المغول آنذاك رغبوا في الحصول على إذعان الآخرين بالرعب، وعدوا تلك سياسة ناجحة في تحقيق النتائج المرغوبة، إلا أن ما حصلوا عليه من إذعان كان إذعانا غير دائم، زال مع زوال مصادر قوة الخصم الصلبة. ونماذج المغول على مسرح التاريخ كثر. نعم قد تكون الدعايات التي يطلقها بعضهم -القاعدة وداعش والتنظيمات الإرهابية الأخرى والطغاة والمستبدون وأمثالهم-تنطوي على تأثير ما من القوة الناعمة يساعد على اكتساب الأتباع والمناصرين، إلا انه في إطار الدور والمستوى الحقيقي للقوة الناعمة المؤثرة يكون محدودا وغير قابل للانتشار والاستمرار.

أخيرا يمكن القول: إن أي دولة أو قوة تعمل في المسرح الدولي لا تكون لها قوة ناعمة تحرك الآخرين إلى الأمام، وتشد أبصارهم إلى الأعلى، وتدفعهم إلى المقارنة بينها وبين الحياة التي يعيشونها لا تكون ناجحة في خلق النموذج الفعال، وسيكون تأثير قوتها الناعمة-أن وجدت- وقتي سرعان ما تنقشع حقيقته، ليبدأ الناس في الاشمئزاز منه.

المحور الثاني: مصادر القوة الناعمة

لكل قوة مصادرها التي توظفها لتحقيق هدفها في الحصول على إذعان الآخرين، والقوة الناعمة لا تختلف عن غيرها، لذلك علينا توضيح مصادرها .

على الرغم من الكتابات المختلفة التي تطرقت إلى هذا الموضوع تبقى كتابات جوزيف ناي هي الأبرز بينها؛ لكونه أول من كتب عنها بعمق وأراد لها أن تكون مرتكزا في بناء العلاقات بين الدول، وقد حدد مصادر القوة الناعمة بـ "الثقافة"، و"القيم السياسية"، و"السياسة الخارجية".(12)

فالثقافة هي "مجموعة العلوم والفنون والأفكار والمعتقدات والأخلاقيات والتعليمات والقوانين والآداب والرسوم وسائر التعليمات والعادات والتقاليد التي يكسبها الإنسان بوصفه أحد أفراد المجتمع"، وقد عرفها مالك بن نبي بأنها " الجو المشتمل على أشياء ظاهرة، مثل الأوزان والألحان والحركات، وعلى أشياء باطنه، كالأذواق والعادات والتقاليد، بمعنى أنها الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معين وسلوك الفرد فيه بطابع خاص، يختلف عن الطابع الذي نجده في حياة مجتمع آخر".

والثقافة عند ناي تمثل " مجموعة القيم والممارسات التي تخلق معنى للمجتمع" وهي تشمل الثقافة العليا للمجتمع التي تؤثر على النخب: الأدب، والفن، والتعليم. والثقافة الدنيا (الشعبية) التي يرى أنها عندما تعمل ضمن السياق الصحيح يكون لها تأثيرا جاذبا مهما، فيقول: "إن ثقافتنا الشعبية قد جعلت الولايات المتحدة تبدو للآخرين مثيرة، وغريبة، وغنية، وقوية، وصانعة للميول والتوجهات، وصاحبة الدور الأبرز في الحداثة والابتكار. ومثل هذه الصور لها جاذبية في عصر يريد فيه الناس أن يشاركوا في الحياة الطيبة والرغيدة على الطراز الأمريكي، حتى ولو كانوا كمواطنين مسيسين واعين بالجانب المنحدر المليء بالتقصير في أمريكا من ناحية البيئة، والمجتمع، والمساواة".

هذا المزج بين فاعلية الثقافة العليا الراقية والثقافة الدنيا الشعبية مهم جدا لتحقيق الجاذبية الثقافية الشاملة، وكما ينقل ناي عن بن واتنبرغ " فان الثقافة الأمريكية تشمل البريق السطحي، والإثارة الرخيصة، والجنس، والعنف، والتفاهة المبتذلة، والنزعة المادية، ولكن هذا ليس هو القصة بكاملها. فالثقافة الشعبية أيضا تصور القيم الأمريكية المنفتحة، والمتحركة، والفردية النزعة، والمعاكسة لمؤسسات النظام القائم، والمتعدد الأطراف، والطوعية، والحرة، والمتصلة بالطبقات الشعبية الدنيا. إن هذا المحتوى سواء انعكس بصورة مواتية أم غير مواتية هو الذي

يأتي بالناس إلى شباك التذاكر. وهو محتوى أقوى من السياسة أو الاقتصاد. بل هو الذي يحرك السياسة والاقتصاد".(13)

وفيما يخص القيم السياسية، فهي تلك التي تبرز في السياسات الحكومية الوطنية المرتبطة بمدى تأكيد الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان من عدمها، وكما يؤكد ناي من الضروري عدم الاكتفاء بإعلان الديمقراطية وحقوق الإنسان وإنما من الضروري-أيضا-أن يكون هناك إيمان حقيقي بها ليعطيك القدرة على التأثير في الآخرين، لذا ينصح الإدارة الأمريكية بقوله: " إن كيفية سلوك أمريكا في الداخل يمكن أن توسع صورتها وإدراك شرعيتها. وهذا بدوره قد يساعد على تقدم أغراض سياستها الخارجية، وليس معناه أن الآخرين يرغبون أو يحتاجون أن يصبحوا نسخا أمريكية".

والسياسة الخارجية، من جانبها، كمصدر للقوة الناعمة تكشف عن سعة أو ضيق المصالح الوطنية للدولة " فالسياسات القائمة على تحديدات شاملة وبعيدة النظر في المصالح الوطنية يسهل جعلها جذابة للآخرين أكثر من السياسة ذات المنظور الضيق القصير النظر".

إذ "عليك أن تمد يدك إلى الشخص الآخر. وعليك أن تقنع الآخرين بأن الصداقة الطويلة الأمد ينبغي أن تتغلب على الشدة القصيرة الأمد". وان "...السياسات المحلية والخارجية التي تبدو منافقة، أو متغطرسة، أو غير مبالية برأي الآخرين، أو قائمة على معالجة ضيقة الأفق للمصالح الوطنية قد تقوض القوة الناعمة".

إن مصادر القوة الناعمة أعلاه تؤكد على أهمية أن تكون للدولة قيم معينة تجذب الآخرين إليها، فالجذب بقوة القيم لتحقيق ما تريده من تفضيلات لا يقل عن أهمية الإذعان الناتج عن استخدام مصادر القوة الصلبة -العسكرية والاقتصادية، "فعندما تحتوي ثقافة بلد ما على قيم عالمية، وتروج سياساته قيما ومصالح يشاركه فيها الآخرون، فانه يزيد من إمكانية حصوله على النتائج المرغوبة بسبب علاقاته التي يخلقها من الجاذبية والواجب. فالقيم الضيقة والثقافات المحدودة يقل احتمال إنتاجها للقوة الناعمة".(14)

والجاذبية لا تكون للدولة إلا بعد أن تصبح قدوة ونموذجا للآخرين، وجميع الدول قادرة على أن تقدم نموذجها من خلال ما تؤمن به وتدافع عنه من قيم سياسية، إلا أن بعض الدول قد تضرب أنموذجا سيئا منفرا، وبعضها الآخر تضرب أنموذجا حسنا جاذبا، فيكون الضعف من نصيب الأولى، على الرغم من مظاهر القوة الخارجية الصلبة أحيانا (الاتحاد السوفيتي السابق مثلا)، وتكون القوة من نصيب الأخيرة.

ولتكون مصادر القوة الناعمة قابلة للتأثير فهي بحاجة إلى:(15)

1. وجود مفسرين جيدين قادرين على إرسال الرسائل المناسبة إلى الآخر.
2. وجود متلقين (جمهور) مستعدين لتقبل هذه الرسائل، وقد يتطلب تهيئة هذه الوسط المستعد وقتا طويلا من العمل لإعطاء النتائج المبتغاة.

المحور الثالث: أهمية القوة الناعمة في العلاقات الدولية

يحاول هذا المطلب الإجابة عن تساؤل مفاده: هل أن قوة الجاذبية لتحقيق الإرغام والهيمنة الطوعية للوصول إلى النتائج المرغوبة بعيدا عن القسر العسكري أو الاقتصادي مهم في العلاقات الدولية؟

يذهب أنصار القوة الناعمة إلى القول نعم؛ كون إدراك دور القوة الناعمة يندرج في سياق فهم قواعد الهيمنة الدولية في عالم اليوم المتغير " فقبل أن تحكم من صاحب الأوراق الرابحة، فإنك بحاجة إلى معرفة ما هي اللعبة التي تلعبها، وكيف يمكن أن تتغير قيمة الأوراق".

ومن قواعد هذه اللعبة إن ديمقراطيات ما بعد التصنيع ستكون اقل ميلا لاستخدام قوتها العسكرية؛ لأنها " ترتكز على الرفاهية بدلا من المجد، كما أنها تكره الإصابات الكثيرة. فغياب أخلاق المحاربين (حسب وصف ناي) في الديمقراطيات الحديثة يعني أن استخدام القوة يتطلب تبريرا أخلاقيا مفصلا بإحكام متقن لضمان التأييد الشعبي، إلا إذا كان البقاء الحقيقي مهددا بالخطر".

ويضرب ناي المثل بانهيار الاتحاد السوفيتي السابق كنموذج على القوة الجبارة عسكريا التي لم تنفعها هذه القوة في اللحظات الحرجة، بقوله: " كانت للاتحاد السوفيتي قدرات عسكرية رهيبة تشكل تهديدا لأوروبا الغربية، وفي أوائل فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية كان لديه أيضا مصادر مهمة للقوة الناعمة من جاذبية العقيدة الأيديولوجية الشيوعية وسجله في التصدي لألمانيا النازية. غير أنه بدد جزءا كبيرا من هذه قوته الناعمة من خلال ممارسته للقمع في الداخل وفي أوروبا الشرقية. وأدائه الاقتصادي غير الكفء في سنواته الأخيرة حتى مع ازدياد قوته العسكرية. فالبرامج الدعائية والثقافية السوفيتية التي كانت تديرها الدولة لم تستطع أن تضاهي تأثير ثقافة أمريكا الشعبية التجارية في المرونة والجاذبية. فجدار برلين كان قد تم اختراقه بالتلفزيون والأفلام السينمائية قبل زمن طويل من سقوطه في عام 1989. ذاك أن المطارق والجرافات ما كانت لتنتج لولا انتقال الصور المبثوثة من ثقافة الغرب الشعبية على مدى سنوات طوال فاخترقت الجدار قبل أن يسقط".

"مهما كانت أهمية قوة الولايات المتحدة العسكرية ووعدها السياسي في إرساء النجاحات الأمريكية في أوروبا إبان الحرب الباردة، فالحقيقة أن جاذبية أمريكا الاقتصادية والثقافية هي التي كسبت عقول وقلوب أغلبية الشباب للديمقراطية الغربية، وكلما كان الاستهلاك الحقيقي يزداد، كانت هناك فرص عالية بأنه يتعين استبعاد الاشتراكية الحقيقية. فالحرب الباردة تم كسبها بخليط من القوتين: الصلبة والناعمة؛ فالقوة الصلبة خلقت جدارا صادا من الاحتواء العسكري، ولكن القوة الناعمة جعلت النظام السوفيتي يتآكل و يهتريء من الداخل".

إن الإصرار على أهمية القوة الناعمة لم يتولد من فراغ، فحتى منتقدو القوة الناعمة لم يتجاهلوا أهميتها وتأثيرها، إذ عبر رفيق عبد السلام عن هذا الأمر بحقائق عدة منها قوله: " صار مألوفا جدا أن يرى المثقف والسياسي، وحتى عامة الناس في نيودلهي والقاهرة وجاكارتا وبكين في نظام العمارة وهندسة المدن والشوارع، وفي سن القوانين، وعزف الموسيقى، وربما نظم الشعر على الطريقة الإنجليزية أو الفرنسية أو الأمريكية باعتبارها النموذج الأمثل وربما الأوحد لتطور الوعي وتجسد الحضارة. وقد أدى هذا الأمر إلى زهد الكثير من النخب فيما هو محلي وموروث إلا لكونه قديما"، وان بعض الزعامات مثل عبد الناصر ونهرو وتيتو وبن بلا والى حد ما ماو تيسي تونغ كانوا معادين للهيمنة السياسية والميراث الاستعماري الغربيين وفي الوقت نفسه كانوا يتطلعون إلى انجاز المهمة التحديثية على الطراز الغربي والالتحاق به. أو في الحد الأدنى تقليص الفارق معه"، "وحتى قادة التيارات الإسلامية اليوم التي ورثت الاتجاهات القومية والوطنية تختلط عندها مشاعر الكراهية والتمرد على ما تعتبره عدوانية الغرب ونفاقه بأقدار غير قليلة من الانجذاب والانبهار به"(16).

ومن الدلائل الملفتة للنظر على أهمية القوة الناعمة هي أن التنظيمات الإرهابية والحركات المتطرفة والمنظمات غير الحكومية استطاعت التمدد عابرة للحدود السيادية للدول من خلال ما تمتلكه من قوة ناعمة بشكل أساس، وهذا الأمر سبق لناي أن حذر منه بقوله: " يعتمد الإرهاب اعتمادا حساسا على القوة الناعمة من أجل تحقيق انتصاره النهائي، وهو يعتمد على قدرته على اجتذاب الدعم من الجمهور بطريقة تعادل على الأقل قدرته على تدمير إرادة القتال عند عدوه". "فالتكنولوجيا تزيد وصول الإرهابيين إلى القوة المدمرة، ولكنهم كذلك يستفيدون كثيرا من قدرات الاتصال المتزايدة مع بعضهم بعضا عبر مناطق السيطرة، ومع المستمعين عبر العالم".

و"القوة الناعمة تعتمد على جمهور مستعد للتلقي حتى ولو كانت عين الناظر شريرة. فالمنظمات الإرهابية عابرة القومية مثل القاعدة قد تكون منفرة لغالبية العالم، ولكن من الواضح أنها جذابة لبعض المتطرفين".

إما بالنسبة للمنظمات غير الحكومية فإنها-أيضا-لها قوتها الناعمة التي تساعدها على التمدد، باعتبارها "ضميرا عالميا تمثل مصلحة عامة واسعة تتجاوز نطاق الدول"، ويتعين "على الحكومات أن تأخذها في الحسبان سواء كحلفاء أم كخصوم"، فهذه المنظمات مرنة وفعالة في اختراق الدول دون مراعاة الحدود الجغرافية.(17)

كما أن خطورة القوة الناعمة في ميدان العلاقات الدولية وصلت إلى أن ترتفع أصوات قيادات دولية بارزة تحذر من تأثير هذه القوة، منهم على سبيل المثال علي الخامنئي المرشد الأعلى للثورة الإسلامية في إيران الذي طالب شعبه ونخبه بالحذر مما اسماها الحرب الناعمة للأعداء بقوله: "الحرب الناعمة حرب حقيقية في عالمنا المعاصر، رغم أن بعض الأشخاص لا يرونها"، وان " الحرب الناعمة عبارة عن تضليل الشعب – الرأي العام- بشعارات ظاهرها حق ولكن محتواها باطل وفاسد وإثارة الغبار في الجو السياسي للبلد...إن الهدف المركزي للحرب الناعمة هو تحويل نقاط القوة والفرص إلى نقاط ضعف وتهديدات، وقلب حقائق البلاد"(18)

ولعل أوضح دليل على أهمية القوة الناعمة ما تراه في كثير من الدول- الدول العربية ذات الأنظمة التقليدية وإيران وتركيا وغيرها من الدول المماثلة-من محاولات تبذلها حكوماتها من اجل غلق حدودها الجغرافية بوجه الوافد الأجنبي الثقافي سواء جاء عن طريق تبادل التواصل البشري المباشر أم عن طريق التواصل التقني: وسائل الإعلام، والانترنيت وشبكات التواصل الاجتماعي...باسم مواجهة الغزو الثقافي أو الحرب الناعمة أو أي تسمية أخرى، فهذه الدول ربما لا ترهبها أساطيل خصومها وعقوباتهم الاقتصادية بقدر ما تقف حائرة أمام قوة نموذجهم وتغلغل نفوذهم الثقافي؛ لأنها تدرك أن من يمتلك الهيمنة الناعمة سيمتلك في النهاية القدرة على إعادة تشكيل جدول أعمال الخصم وتحطيم إرادة مقاومته. نعم قد تجادل بعض قيادات هذه الدول بذرائع شتى وقد تكون في كثير من الأحيان حججها صحيحة، لكنها لا تستطيع أن تنكر أن مجرد غلقها لحدودها البشرية والجغرافية بوجه مصادر القوة الناعمة الموجهة لها من خصومها دليل على ضعفها وعدم قدرتها على كسب الصراع في هذا المضمار.

إن عالم اليوم متغير بسرعة، ومتطور بصورة أسرع، ويحتاج من يريد التقدم فيه تكنولوجيا واقتصاديا إلى الانفتاح على الآخرين، لذا لن يطول الزمن كثيرا حتى تصبح جميع الدول والشعوب مكشوفة على بعضها البعض، وعندها سيتفاقم تأثير القوة الناعمة بصورة لم

يسبق لها مثيل في تاريخ البشر، وستجد الدول الأضعف في مصادر قوتها الناعمة إنها محاصرة يوما بعد آخر إلى أن تصل إلى واحدة من نتيجتين: أما تطور مصادر قوة ناعمة خاصة تمكنها من الاستمرار في التنافس والتأثير على الآخرين، وأما تهزم بطريقة تجعلها عاجزة عن مواصلة العناد والمكابرة فتخسر إرادتها وشعبها لمصلحة الخارج.

نخلص مما تقدم من حديث عن ماهية القوة الناعمة إلى أنها تتمتع بميزات مهمة جدا هي:

1. أنها لا تجسد قوة الحكومات فقط، وإنما تجسد أيضا قوة شعوبها، مما يحمل الدول مسؤولية إيجاد حكومات جيدة تنظيما وإدارة وقرارا وأشخاصا، كما يحمل الشعوب مسؤولية السعي بلا هوادة نحو التطور الثقافي في حقلي الثقافة العليا والشعبية.
2. جاذبية النموذج في القوة الناعمة يتطلب من الدولة ان تكون سياساتها قابلة للجذب والإقناع في حقلي السياسات الداخلية والخارجية، وهذا يعني أن السياسات المنفرة والمكروهة لن تكون محل ترحيب لمن يريد امتلاك قوة ناعمة عالية التأثير.
3. أنها ليست قوة عمياء، على الرغم من كونها غير ملموسة؛ لأن الحصول عليها ينسجم مع فهم طبيعة المتغيرات التي تجري في البيئة الدولية من اجل التكيف مع هذه المتغيرات والاستعداد للتنافس مع وحداتها المؤثرة، وصولا إلى تحقيق النتائج المرغوبة للدولة بطريقة ذكية.
4. الضعف -ظاهرا وجوهرا-غير مقبول؛ لأن الضعيف كما يرغم عسكريا واقتصاديا، سيرغم بالقوة الناعمة، ومن يريد الانتصار في عالم دولي شديد التعقيد والتنافس والحركة عليه أن يكون قويا لا بقوته الصلبة الظاهرة فقط، وإنما قويا بالجوهر أيضا من خلال امتلاكه لنظام حكم مقبول، وثقافة محفزة، وسياسات صالحة، وتقدم تكنولوجي، ومؤسسات مؤثرة.
5. الاستعمال الفعال لهذه القوة يساعد على احتواء النزعات الفكرية المدمرة، والحركات المتطرفة، والدول العدوانية بفعل الإرادة الدولية الراغبة فعلا بتحقيق السلم والأمن الدوليين، والعكس صحيح تماما، عند إساءة استعمالها او عند عدم امتلاك مصادرها.

المطلب الثاني: واقع القوة الناعمة –ليبيا أنموذجا

طالما أن القوة الناعمة تعني قوة الجذب للدولة من خلال ما تجسده من أفكار ومبادئ وأخلاق وقيم ومن خلال الدعم الذي تقدمه في مجالات حقوق الإنسان والثقافة والفن، مما يدفع الآخرين إلى احترام النموذج الذي تمثله تلك الدولة والإعجاب به، بسبب قوة التأثير التي تحدثها موارد القوة الناعمة. فإن الوطن العربي على الأقل- يعاني من مشاكل كثيرة تضعف تأثير قوته الناعمة، فالمبدأ الديمقراطي المتعلق بالتداول السلمي على السلطة، بل وفكرة التداول ذاتها، أبعد ما تكون عن الواقع في التجربة السياسية العربية الحديثة والمعاصرة. لذا تسود نظم حكم عائلية أو عسكرية أو فردية على عرش السلطة منذ عقود، ولم تفلح حتى الانقلابات العسكرية التي عرفها العرب مبكراً في تغيير الصورة، بل إن النظم الانقلابية في الحقيقة أرست دعائم جديدة وقوية لرسوخ الدكتاتورية أطاحت كل شكل لتداول السلطة. و حتى ما يسمى بـ "الجمهوريات العربية" التي تدعي الانتماء إلى الديمقراطية، أخذت بالتحول نحو إقرار مبدأ التوريث، وليس مبدأ التداول، كما يفرض النظام الجمهوري أساساً. لذلك تجد أن البعض يسمي هذه النظم "جملكيات" نتيجة ميل الحاكم أو القائد وسعيه الحثيث إلى توريث السلطة لأبنائه بمختلف السبل.(19)

وكان العرب من بين جميع مناطق العالم، أكثرها إحباطاً للآمال من حيث التنمية الاجتماعية والاقتصادية، وحقوق الإنسان والحريات العامة، ونمو المجتمع المدني؛ والأسباب المفسرة لذلك كثيرة لا مجال للخوض فيها هنا.

"ولا عجب في ذلك، فالبلد اللاديمقراطي ذو الاقتصاد المتخلف لا يمكن أن يعكس صورة مزدهرة... فالديمقراطية كقوة ناعمة لا يمكن استنباتها بشكل مصطنع بمعزل عن الواقع. والقوة الناعمة للدولة تتعزز عندما تكون رائدة في متوسط عمر مواطنيها ومستوى الرواتب والأجور والحقوق التقاعدية لديهم ومعدل دخلهم ومستوى تمتعهم بالتعليم والضمان الصحي والاستقرار لأطول فترة بلا حروب أو كوارث ومؤشرات أخرى كثيرة تكوّن هيبة وسمعة البلد في عيون الشعوب الأخرى. وغالبا ما ترى دولا صغيرة تتقدم في كثير من المؤشرات على دول كبيرة فتكون قوتها الناعمة فاعلة أكثر".

علما أن لكثير من الدول قوة ناعمة لكن لا تجيد استخدامها أو توظيفها وتتجاهلها الطبقة السياسية وعامة الناس بشكل متعمد أو غير متعمد مما يؤدي إلى نتائج عكسية على البلد نفسه داخليا وخارجياً.(20)

ومن هذا التوصيف العام للواقع العربي ستحاول الدراسة قراءة معطيات القوة الناعمة لبلد عربي (ليبيا)، من حيث واقع القوة الناعمة لديهما؟ وتأثيرها السلبي عليهما؟ وكيفية التوظيف الاستراتيجي لهذه القوة المهمة لتعزيز قوتهما الشاملة؟

المحور الأول: واقع القوة الناعمة في ليبيا

لقد سعت بعض الدول العربية إلى استغلال وسائل القوة الناعمة في بناء مرتكزات وجودها، وأهميتها في السياسة الدولية، رغم عدم امتلاكها أسس القوة التقليدية، "كالإمارات العربية المتحدة من خلال الإبهار العمراني، ونمط المعيشة المتطور، وسياحة المهرجانات والمؤتمرات، وقطر من خلال شبكة الجزيرة الفضائية التي جذبت الرأي العام العربي في المجالات الأكثر جماهيرية، كالرياضة والسياسة، والمملكة العربية السعودية من خلال توظيف الفكر الوهابي، والهيمنة على وسائل الإعلام والإنتاج الفني والثقافي، ومصر من خلال الدراما التلفزيونية ".

وبالنسبة لليبيا فإن واقع القوة الناعمة فيها يشير إلى الموارد الحقيقية لهذه القوة أو أنها بحاجة إلى إصلاح مقومات قوتها الناعمة من اجل إعادة الفاعلية والتأثير لها على المستوى المحلي والدولي، وكما سيتضح من خلال ما يلي:

لقد "افتقرت ليبيا الحديثة بعد استقلالها عام 1951 إلى ثقافة حقوق الإنسان وممارستها على نطاق واسع، وعندما نتحدث عن حقوق الإنسان بالمفهوم الحقوقي، فنعني جملة المعايير السياسية والمدنية التي صنفتها مؤسسات الأمم المتحدة والتي من أهمها: تأمين سلامة الأفراد من الحرمان التعسفي وغير القانوني من الحياة، ومن الاختفاء ومن التعذيب والعقوبة والمعاملة القاسية وغير الإنسانية وانتهاك الكرامة، ومن الاعتقال التعسفي، والحرمان من المحاكمة العادلة، ومن التدخل التعسفي في الحياة الخاصة والأسرية والمنزلية والمراسلات، وضمان حرية التعبير ووسائل الإعلام، وحرية التجمع وتكوين الأحزاب والجمعيات، وحرية التنقل داخل البلاد وخارجها والهجرة والعودة، واحترام الحقوق السياسية، بما في ذلك احترام حرية المواطنين في تغيير حكوماتهم، والالتزام الحكومي بضمان إتاحة المجال للتحقيق الأممي أو الأهلي في أي انتهاكات مزعومة لحقوق الإنسان، والتحقق من عدم وجود تمييز وتحقير اجتماعي لجنس أو طبقة معينة، فضلاً على كفالة حقوق العمل والتي تشمل في المقام الأول العمل النقابي ومنع العمل القسري، وتطبيق معايير للأجر الأدنى، ووجود شروط مقبولة للعمل".

إلا أن استمرار النظام الليبي في "اعتماد نهج الدولة الأمنية والتوغل في الأخطاء والتشديد على الحريات وحقوق الإنسان والإعلام، عّرضت البلاد لحالة عزلة دولية ومواجهة مع

المجتمع الدولي. ثم لجأ النظام الليبي السابق إلى خطاب "الخصوصية" في المنطقة، ونظر إلى المجتمع المدني وحقوق الإنسان بوصفها نتاجاً لثقافة الغرب، وتعبيراً عن هيمنته متجاهلاً ضرورة تحاور واتصال الثقافات والحضارات والأساس المشترك لتلك الحقوق بين جميع البشر، وكثير ما كان النظام يلجأ إلى الحلول الأمنية "القوة الصلبة" بدل الحلول المدنية "القوة الناعمة" للتعامل مع المجتمع والحركات المدنية المطالبة بالديمقراطية وحقوق الإنسان".

إن شمولية النظام الحاكم الليبي جعلته يتشدد ضد انتقاد الحكومة وسياساتها وممارساتها ورموزها، إذ لا يجوز المس بمقام قائد الثورة وغيره من القائمين على السلطة التنفيذية والأمنية، كما أن وسائل الإعلام في الجملة تدار مباشرة بواسطة النظام، ولا يسمح لأصحاب الرأي الآخر بالمشاركة في وسائل الإعلام المقروءة أو المسموعة أو المرئية أو الإلكترونية. وكثير من معتقلي الضمير والرأي يقبض عليهم ويعاملون معاملة سيئة؛ بسبب تعبيرهم عن آرائهم، هذا إضافة إلى سيطرت النظام على السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية. (21)

ليبيا بعد القذافي ليست بأفضل حال من أيامه. فليبيا ليس فيها سلطة قوية تحكمها ولا جيش موحّد ولا إدارة للبلاد. فإذ تناقلت الأخبار على شاشات التلفزيون، مدى فظاعة الأوضاع السائدة في ليبيا، فرئيس حكومة ليبيا يخطف من مكتبه والقنصل الأميركي ينكّل به ويقتل، والقنصلية التركية توضع عبوة أمامها، وكذلك دول وجماعات مسلحة تتصارع فوق أرض ليبيا على ثروات ليبيا، تضاف إليه الجماعات المتشددة التي وصلت إلى ليبيا وبدأت تنظّم صفوفها وترسخ من وجودها.

كشفت حادثة القبض على أبو أنس الليبي (المنتمي لتنظيم القاعدة) الذي تبحث عنه الولايات المتحدة الأميركية، أنّ مؤسسات الدولة الليبية ليست قادرة على التحكّم بأي شيء في البلد، ومن يحكم ليبيا هي الميليشيات المسلحة التي تسعى لفرض منطقها بالسلاح .

إنّ ما تعيشه ليبيا اليوم حالة فريدة من نوعها، إذ لم يعد هناك نظام واحد وإنما أنظمة. فالميليشيات وبالنظر لكونها متكافئة تقريبا في العتاد العسكري تلجأ إلى التهديد والضغط للحصول على ما تريده وهذا ما رأيناه حين ضغطت على الحكومة المركزية من خلال اختطاف رئيس الوزراء علي زيدان. الأمر الذي يؤدي إلى انخفاض التصنيف في معيار الجهاز الأمني (SECURITY APPARATUS) .

أوضح بعض المحّللين الليبيين أنّ كلّ هذه الأحداث لها تأثيرات سلبية على الاستقرار الداخلي، وقد تطورت لتتحول إلى تهديد لدول الجوار أو لمصالح الدول الأجنبية بشكل عام، وهو الأمر الذي يفرض على هذه الدول تدخّلها بشكل مباشر بحيث لن تتمكن الدولة الليبية حينذاك من

الاعتراض، لأنها ببساطة غير قادرة، فكل مكونات المشهد الليبي الحالي دخلت في صراع على قاعدة "إلغاء الآخر"، صراع يدور حول "الغنيمة" (الثورات البترولية الهائلة) و"النفوذ" بما يعني من إصرار كل طرف أو جهة على حسم الصراع لصالحه، وهي عملية تبدوا غير ممكنة، إن لم تكن مستحيلة على الأرض. ولعل هذا ما يفسر عدم قدرة الفاعلين السياسيين على الحوار وإيجاد تسوية داخلية توقف نزيف الانزلاق نحو "الانهيار الكبير"، نحو حرب أهلية ستخلف الدمار وتنسف ما تبقي من أسس ومقومات الدولة. إذ نلاحظ استمرار الطابع الدموي، الذي صاحب الانتفاضة الليبية، منذ بدايتها، بعد أن عمد نظام القذافي إلى عسكرتها، لتأخذ منعرجا أكثر دموية مع التدخل العسكري الأجنبي، الذي عمد إلى استيعاب الحراك الثوري، ثم تحويله عن مساره.

المحور الثاني: التوظيف الاستراتيجي للقوة الناعمة

يرى جوزيف ناي إن هناك تغيرين أساسيين للقوة في القرن الحادي والعشرين: أحدهما هو التحول بين الدول من الغرب إلى الشرق والذي يمكن أن يطلق عليه تعافي آسيا. والثاني هو توزيعها بعيدا عن كل الدول الغربية إلى أطراف من غير الدول، نتيجة للانخفاض الاستثنائي لتكلفة عمليات الحوسبة والاتصالات والتي نتجت عن ثورة المعلومات الحالية. وهو ما مكن أساسا الأطراف من غير الدول والأفراد لكي تفعل أشياء كانت من قبل تقتصر على الحكومات أو المؤسسات الكبرى.

والتغير الثاني للقوة يؤشر بشكل أو بآخر على مفهوم "القوة الناعمة" وعناصرها؛ لأن القوة التي تمتلكها غير الدول من الجماعات المتطرفة والجماعات الأخرى هي قوة ناعمة في أكثر صورها؛ لاسيما في مجال التوظيف الإعلامي والديني واستخدام الانترنيت ووسائل التواصل الاجتماعي ومخاطبة المتطرفين بلغات متعددة واستخدام التكنولوجيا والحوسبة وغيرها من المعلومات. هذا التوظيف للقوة الناعمة من قبل تلك الجماعات قد تكون بعض الدول فشلت فيه، وخير مثال على ذلك الدول العربية، لاسيما تلك الدول التي تعاني من حالة عدم الاستقرار السياسي مثل العراق وسوريا وليبيا واليمن وغيرها من الدول غير المستقرة، والتي شهدت أحداث "الربيع العربي". فهذه الدول اليوم بحاجة حقيقية إلى مراجعة ذاتها وتوظيف إمكانياتها وقدراتها الناعمة لمنافسة الجماعات من غير الدول على أقل تقدير؛ لأن التغلب على تلك الجماعات يحتاج إلى توظيف صحيح لموارد القوة الناعمة وليس إلى القوة العسكرية والاقتصادية فقط "القوة الصلبة".

إن صورة البلاد وجاذبيتها تعتمد كثيرا على قوة قيمها وسياساتها المحلية والدولية، وهذه الصورة والجاذبية لا تعزز قوة الدولة الخارجية فقط، إنما تعزز قوتها الداخلية من خلال تعزيز ثقة مواطنيها بأنفسهم وبنظامهم السياسي وبمستقبلهم. وعندما "يكون لديك نظام سياسي بمواصفات معينة وتدافع عن قيم عليا إنسانية تتحول إلى نموذج، هذا النموذج يمكن أن يلهم الآخرين للاقتداء به وتتحول الدولة بحكم نموذجها إلى لاعب فاعل في الساحة الدولية، وسبق الإشارة إلى أن مسار البحث لا يذهب باتجاه الفصل بين القوتين: الصلبة والناعمة؛ لكون هذا الفصل خيارا خاطئا، بل يذهب إلى ترسيخ فكرة المزج الذكي بينهما ''القوة الذكية'' وحث صانع القرار على استعمال موارد القوتين في المناسبات الضرورية وفي الأوقات الضرورية لتمكينه في النهاية من تحقيق أهدافه التي يرغب بالوصول إليها".(22)

إن صناع القرار في ليبيا بحاجة إلى إدراك بأن الدول لا تحقق أهدافها بالقوة الصلبة فقط، وأن هناك أنواع أخرى من القوة هي بحاجة إلى امتلاكها ألا وهي قوة الثقافة، والفكر، والمؤسسات التعليمية، ونوع الحكم السائد، وفاعلية السياسات المحلية، وطبيعة القيم التي تعكسها السياسة الخارجية. فوهج الدولة الايجابي في عيون الآخرين ليس أمرا ثانويا، بل هو أساس مهم في إقناعهم للخضوع الطوعي لما نرغب في تحقيقه، ومهم جدا أن تنجح في الهام الآخرين؛ لجعلهم إما يقلدوك أو يقتنعوا بوجهة نظرك ويسلموا بما تطرحه في جدول الأعمال على اعتبار أن لديك نموذجا يحترمونه ويشعرون في داخلهم بالتأثر به.

أخيرا، لابد من التأكيد على حقيقة مهمة هي: إن التوظيف الاستراتيجي للقوة الناعمة في ليبيا لن يكتب له النجاح بدون تعزيز قوة القيم والمثل والسياسات و نظام الحكم فيها، فميزة هذه القوة أنها تنطلق من قوة الداخل لجذب الخارج والتأثير فيه وإرغامه الطوعي على تنفيذ ما نريد، وبدون وجود هذه القوة في الداخل لن يكون للفعل الخارجي أية قيمة مهما بذل فيه من جهود وأموال. لذا إذا كنا نرغب في الحصول على قوة ناعمة تنافسية ومؤثرة-أن نبدأ سريعا بإصلاح عوامل الضعف الداخلية التي تؤثر علينا سواء موارد قوتنا الناعمة أم قوتنا الصلبة، وطريقة التعاطي بالقوتين في الميدان الداخلي والدولي.

إن كل دول العالم عاشت أوقات سيئة في تاريخها فتك فيها أفرادها بعضهم ببعض، كما عاشت أوقات طيبة وحدتهم ونشرت السلم بينهم، لكن هذه الدول لم تستطع التقدم إلى الأمام وتعزيز دورها الحضاري إلا بعد أن حاولت نسيان الماضي السيئ واستحضار الماضي السعيد، وانطلقت بثقة إلى الأمام لتبني الإنسان والمعرفة، وتؤسس لصرح ثقافي أكثر انسجاما وتجانسا. لقد أثبتت شعوب المنطقة في السنوات الأخيرة أنها تستطيع في كثير من الأحيان التواصل فيما

بينها، على الرغم من القطيعة بين أنظمة حكمها من خلال ثقافتها الشعبية والعامة، فعلى سبيل المثال نجحت الدراما السورية في التقريب بين الناس من خلال برامجها المدروسة بعناية-مسلسل باب الحارة مثلا- كذلك نجحت نظيرتها الإيرانية – مسلسل يوسف الصديق مثلا- والتركية - مسلسل حريم السلطان مثلا- في الوقت الذي لم تنجح فيه الدراما العراقية بشكل كبير، وكذا حال بقية الدول بدرجة أو أخرى.

ونجحت الطقوس الدينية في التقريب بين شعبين شرق أوسطيين خاضا حربا مدمرة لثمان سنوات -العراق وإيران-في الوقت الذي فشلت السياسات الحكومية في تحقيق هذا الهدف أو كانت تأثيراتها محدودة. ويمكن أن يقال نفس الشيء عن الغناء، والموسيقى، والمسرح، وتبادل الزيارات العلمية، والسياحة، والتشبيك المشترك بين منظمات المجتمع المدني... فهذه الفعاليات الثقافية أثبتت فعاليتها في الميدان من خلال ما تركته من انطباعات إيجابية عن الآخر الذي حاولت السياسات الرسمية شيطنته وتضخيم حجم الكراهية له. ومما أضعف فعالية القوة الناعمة لثقافة شعوب المنطقة عن تحقيق أهداف اشمل وأعمق وأطول بعدا زمنيا، هو أنها تأتي كنتاج عرضي، وليست جزء من سياسة عامة للحكومات، فالحكومات متمسكة بخياراتها الصلبة التي تدمر نفسها وجيرانها من خلالها. لذا فمن اجل تأثير ثقافي إيجابي أكثر، يكون الأفضل للحكومات في الشرق الأوسط ان تجعل سياستها الثقافية جزء مهما ومكملا لموارد قوتها في الساحة الإقليمية، على أن تكون سياسة تستهدف التقريب الثقافي لا التباعد وترسيخ الكراهية.(23)

من جانب آخر، يمكن للقوة الناعمة الثقافية أن تلعب دورا كبيرا في احتواء مظاهر التطرف والإرهاب -الفكري والسلوكي-ومحاصرة الحركات والتنظيمات الإرهابية عندما يكون خطابها الثقافي أكثر اعتدالا وإقناعا، وأقرب إلى فهم الناس ومستواهم الفكري. فالإرهاب في الوطن العربي اليوم جزء من مغذياته الرئيسة تكمن في الفراغ الثقافي الذي استطاعت ملئه التنظيمات المتطرفة، وهذا الفراغ لا يقل تأثيره عن تأثير السياسات الحكومية الفاشلة التي لم تستطيع استيعاب جميع مواطني الدولة، ولم تنجح في حل مشاكلهم الرئيسة المرتبطة بالتعليم، والفقر، والحرية، والحاجات الرئيسة والجمالية. فوجود بيئة ثقافية جذابة وعملية ومعتدلة ستقلل حتما جاذبية الحركات المتطرفة في داخل الدول، والتيارات الهدامة القادمة من خارجها على التأثير في أفرادها وتجنيدهم لمصلحتها، ولا نزعم هنا إن جاذبية هذه الحركات ستنتهي إطلاقا، ولكنها ستضعف حتما، وستكون الأرض الثقافية لهذه البلدان غير خصبة لأطروحاتها. علما أن التطرف بمجمله يمثل ميلا مرضيا لا ينحدر إليه إلا من يعانون خلل ثقافيا، والحكومات في

الشرق الأوسط مسؤولة مسؤولية مباشرة عن رفع المعاناة عن مواطنيها؛ حتى لا يكونوا صرعى هذا المرض المميت.

ولا يقل تأثير القوة الناعمة العربية في الميدان الدولي عن دورها في الميدان الإقليمي، فاليوم دول المنطقة متهمة بالتخلف والتطرف والإرهاب والفوضى والعجز المؤسسي والتنموي والتراجع الحضاري الشامل من قبل الرأي العام العالمي، بسبب سياساتها السيئة اتجاه بعضها البعض، وبسبب رداءة منتجها الثقافي المصدر إلى الخارج، وبسبب سلوك بعض مواطنيها في الدول الأخرى، ولا يمكن تغيير هذه الصورة فقط من خلال السياسات الحكومية فقط - سبق أن جرى التأكيد على أن موارد القوة الناعمة في جزء كبير منها ليست بيد الحكومات- بل لا بد من اشتراك الشعوب في إيصال صورة مغايرة إلى العالم، وهذا يمكن أن يتم من خلال التأثير الثقافي الواسع - ثقافة عليا وثقافة دنيا- مما يتطلب إعادة دراسة لطبيعة المنتج الثقافي الحالي ومعرفة كيف يتم تغييره ليعطي انطباعا إيجابيا في أوروبا واسيا وأمريكا وغيرها من بقاع العالم، ولا يمكن لهذا المنتج أن يكون مؤثرا إلا بزيادة فعالياته في الفن والعمارة والرسم والنحت وتبادل الوفود والنشاطات العلمية والسياحة، فما تحصده هذه الدول من نتائج إيجابية في عيون العالم لن تحققه من خلال الابتزاز والرشا وشراء الذمم، بل لا بد أن يكون لها حضورا قويا داخل الدول الأخرى في برامج التلفزيون والسينما والمسرح وشبكات التواصل الاجتماعي والرياضة والتطور التكنولوجي وغيرها من المجالات التي يعشقها المواطن العادي في الوقت الحاضر؛ ففي النهاية يكون الإعجاب والجذب الحقيقي هو الإعجاب والجذب الذي يبديه الناس العاديين في المجتمعات الأخرى.

إن الحضارة المعاصرة ميزتها سرعة الوصول إلى الآخرين، وكلما كنت أسرع من غيرك في الوصول إلى قلوب وعقول الناس، كلما كنت أكثر جاذبية وإقناعا، ولا تكفي السرعة لوحدها بدون التلقائية والبساطة والتواضع والعمق، فإنسان اليوم ذكي جدا وهو يستطيع أن يميز بين من يتكلف العمل لمصلحة حاكم ما أو نظام حكم ما، وبين ما هو نابع من صميم القلب والوجدان. والثقافة الشرق أوسطية لديها الكثير لتقدمه إلى العالم، لكن حكوماتها، وشعوبها بدرجة أو أخرى لا تلتفت إلى ذلك، أو لا تمتلك المهارة والنية لفعل ذلك، أو أنها متخوفة من فعل ذلك، وفي الحالة الأخيرة يكمن ضعفها المطلق، فكما يقال في المثل: الكهف الذي تخشى الدخول إليه هو الكهف الذي يحتوي على الكنز الدفين الذي تبحث عنه. فالخوف من الانفتاح على ثقافة الآخرين والتواصل معهم، هو الذي يفقدنا القدرة على جذبهم والتأثير فيهم. ووجود بنية ثقافية مؤثرة بحاجة-أيضا-إلى إعادة النظر في سياسات الإعلام في عموم بلدان الشرق الأوسط، فهذه

البلدان بحاجة إلى إستراتيجية إعلامية جديدة ومغايرة للاستراتيجيات الحالية إستراتيجية ترتكز على الاحترافية والحرية والاستقلالية والاتساق مع الحقيقة، والشفافية للوصول إلى المعلومات وكشف الحقائق والتعبير الصحي عن اختلافات الرأي.

نعم قد تكون فكرة وجود مؤسسات إعلامية مملوكة للدولة ومعبرة عن المجتمع وتياراته المتباينة فكرة جيدة على المستوى النظري، إلا إنها ترتبط بمشكلات التسييس والتوظيف من جانب النخب الحاكمة على المستوى التطبيقي، ويكفي في هذا المجال دراسة تجارب بعض المؤسسات الإعلامية الأوروبية في فرنسا وبريطانيا وألمانيا - تجربة هيئة الإذاعة البريطانية مثلا- لاكتشاف أن وجود إعلام عام مستقل يمثل عامل توازن قد تحتاجه مجتمعات الشرق الأوسط في مواجهة أي احتكار حكومي لوسائل الإعلام.

وإصلاح الإعلام يعتمد على ثلاثة محددات:

1. حرية الرأي والتعبير ونضج الممارسة الديمقراطية.
2. وضع حد لاحتكار وسيطرة الدولة على الإعلام عبر انتقال الإعلام المملوك للدولة إلى خدمة عامة.
3. استقلال الأطر المنظمة والمشرفة على القطاع المرئي والمسموع. إذ يتعين حماية السلطات التنظيمية من كل أشكال التدخل السياسي والاقتصادي، وذلك في تشكيل وتعيين أعضائها بطريقة ديمقراطية وشفافة، وأن تتسع عضويتها لتمثيل المصالح المختلفة.

كما أن تطوره يعد آلية مهمة من آليات القوة الناعمة الثقافية لنشر قيم المجتمع وخلق جاذبية عالية له للتأثير في الرأي العام العالمي من اجل تحقيق أهداف الدولة، وقد فطنت إلى هذه الحقيقة كل الدول التي تريد لها دور فاعل في العلاقات الدولية، ودول الشرق الأوسط بحاجة - أيضا-إلى أن تفطن إليها، فتعمل على توفير البنية المناسبة لإعلام ناجح مهني، ومؤثر، غير مسيطر عليه من الحكومات، وغير متورط في إثارة مشاعر التطرف والكراهية.

وبالنسبة للتعليم فمن المفترض أن تكون سياسات التعليم في بلدان الشرق الأوسط متقدمة على مستوى الكم ومستوى النوع، فالدول تتواصل مع بعضها ثقافيا عن طريق تبادلها لخبراتها العلمية، ورقيها في ترتيبها العلمي العالمي. وكان طلاب العلم منذ أقدم العصور سفراء دولهم في البلدان الأخرى، وأيضا حاملين لثقافة تلك البلدان إلى دولهم، وقد أراد ناي في كتابه القوة الناعمة أن يشير إلى هذه الحقيقة، فبين أن من مظاهر القوة الناعمة الأمريكية هو أن الكثير من قادة العالم اليوم هم خريجو الجامعات الأمريكية، وهم متأثرين في أعماقهم بنمط الحياة الأمريكية.

لقد استطاعت بعض دول الشرق الأوسط أن تخطو خطوات مهمة في جودة جامعاتها ومعاهدها، كالسعودية، وقطر، والإمارات العربية المتحدة، وإيران، وتركيا... وبعضها الآخر لازال يحبو في هذا الطريق، وهناك دول ربما تراجع فيها الأداء في مؤسساتها التعليمية، لكن هذه الدول تستطيع تجاوز الكثير من أزماتها الثقافية من خلال مد الجسور التعليمية فيما بينها أولا، وبينها وبين محيطها الدولي ثانيا من خلال زيادة معدلات الابتعاث الدراسي، والنشاطات العلمية المشتركة، وتبادل الوفود العلمية، وبرامج تبادل الأساتذة، والمعايشة العلمية. إن هذه البرامج يمكنها كسر الكثير من الحواجز والعقبات النفسية والاجتماعية، ومد جسور متينة من الاحترام المتبادل والثقة المشتركة، إلا أن الكثير من الحكومات تتجاهلها عمدا أو غفلة، معتقدة انها قادرة على تحقيق ما تريد وترغب بأدوات غير صحيحة ومؤذية في كثير من الأحيان.(27)

وأي سياسة تعليمية مؤثرة لن يكتب لها النجاح ما لم تلبي حاجات المجتمع السياسية، والثقافية، والاجتماعية، والنفسية، والفكرية، والتعليمية. فالجامعة عليها أن تستجيب لحاجات المجتمع أكثر مما تستجيب لحاجات الدولة الرسمية. كذلك لابد من الاهتمام بجودة وكفاءة عملية البحث العلمي عند وضع أي سياسة تعليمية مؤثرة، من خلال الاهتمام بدوائر البحث العلمي عموما، وبمراكز البحث والتفكير بشكل خاص، فهذه المؤسسات تعد وسيلة مهمة في دول العالم بوصفها أحد أهم أدوات القوة الناعمة، ورافد مهم لصانع القرار. وتأتي قوة مراكز التفكير وصلابتها من خلال ما تتمتع به من سمات مميزة: فهي عبارة عن هيئات دائمة، متخصصة بإنتاج حلول للسياسة العامة، بفضل وجود طاقم بحثي متخصص متفرغ للبحث، يؤّمن ناتجاً أصيلاً من التفكير والتحليل والنصح، رسالته أن يوجه إلى الحكام وإلى الرأي العام، وغير مكلف بإنجاز مهام حكومية، ويسعى بشكل عام للإبقاء على استقلاليته الثقافية وعدم الارتباط بمصالح محددة، وليست مهمته الأساسية تأهيل أو منح شهادات؛ ولعمله طموح ظاهر أو خفي للعمل على مفهوم ما للخير العام بخلاف الهيئات التي هدفها التجارة والربح فقط.

وهي كفاعلين سياسيين جدد، عليها أن تجد مكانها في سوق الأفكار الكثيف جداً، واستقلاليتها الفكرية وكذلك مصداقيتها وشرعيتها الديمقراطية تتطلب تقويتها بثبات، لتخطي العديد من العثرات كي لا تفقد روحه. وأن أهم حوافز البحث العلمي في أي سياسة تعليمية ناجحة ينبغي أن تركز على:-

1. توسيع هامش الحرية الأكاديمية الكافية للباحثين.
2. التخلي قدر الإمكان عن مظاهر البيروقراطية والمشكلات الإدارية والتنظيمية.
3. تراجع الفساد المالي والإداري في مؤسسات البحث العلمي.

4. الإسراع الدائم في عملية نقل المعلومة التقنية من الدول المتقدمة إليها.
5. إحداث حراك دائم في مراكز البحوث، بحيث لا تبقى تحت قيادات قديمة مترهلة، غير مدركة لأبعاد التقدم العالمي في ميادين البحث العلمي، لاسيما في العلوم التكنولوجية.
6. مواصلة التدريب المستمر للباحثين الجدد، ومساعدتهم على امتلاك قدرات تنافسية تساعد على تطوير كفاءتهم.

أما بالنسبة للسياسات الخارجية لبلدان الشرق الأوسط، فمن الأفضل التذكير بأن القوة الناعمة "تعني حشد تعاون الآخرين دون تهديدات أو دفع أموال". وأنها تعتمد على عملية الجاذبية وليس على القوة العسكرية السافرة أو الرشاوى الرخيصة، وأنها تعتمد جزئياً على كيفية قيامنا بوضع إطار لأهدافنا. فالسياسات القائمة على تحديدات شاملة وبعيدة النظر في المصالح الوطنية يسهل جعلها جذابة للآخرين أكثر من السياسة ذات المنظور الضيق؛ وبالمثل فإن السياسات التي تعبر عن قيم مهمة يزيد احتمال جاذبيتها عندما تكون القيم مشتركة.

وأي سياسة خارجية ناجحة هي تلك التي تقوم بكسب الأصدقاء والحلفاء في الميدان الدولي، لهذا يقول "نيوتغين غريتش" (الرئيس السابق لمجلس النواب الأمريكي): "إن المفتاح الحقيقي ليس في عدد الأعداء الذين أقتلهم، بل إن المفتاح الحقيقي هو عدد الحلفاء الذين أكسبهم".(27)

انطلاقا من كل ذلك، تجد أن السياسة الخارجية لأغلب بلدان الشرق الأوسط - مع إدراك عوامل ضعفها التي مصدرها متغيرات بيئتها الداخلية- بحاجة إلى أن توظف من حكوماتها بطريقة أكثر ذكاء لتحقيق الأهداف المرغوبة، على أن تصب تلك الأهداف في مجال خلق بيئة دولية أكثر استقرارا وسلاما وديمقراطية؛ من اجل خلق قواسم مشتركة أكثر مع الآخرين، فهذه الأهداف هي القيم العليا التي تميز السياسة الخارجية الناجحة عن أية سياسة انتهازية عدوانية، وبدون كسب التأييد العالمي والانفتاح على خيارات وحلول كثيرة تحقق الربح للجميع سينغلق أفق السياسة الخارجية، وتكون مجرد جهاز إداري تابع لنظام الحكم. إن التركيز على القيم المشتركة، والسلام للجميع، والنزعة الإنسانية في الأداء الخارجي هو ما تحتاجه بشدة جميع دول الشرق الأوسط؛ لتجاوز تحدياتها الطارئة والعميقة. كما تحتاج السياسات الخارجية لدول المنطقة، فضلا على التمسك بقيم عليا يشاركها فيها الجميع إلى وجود كوادر متميزة على رأس وزارات خارجيتها وسفاراتها وقنصلياتها، يمكنها تفهم متغيرات بيئتها المحلية والدولية، لابتداع آليات

جديدة للحوار والإقناع للخروج من عنق التحديات، فغالبا ما عانت هذه الوزارات من وجود شخصيات محدودة الكاريزمية، وضعيفة الأداء .

أخيرا، لابد من التأكيد على حقيقة مهمة هي: أن التوظيف الاستراتيجي للقوة الناعمة من قبل دول الشرق الأوسط لن يكتب له النجاح بدون تعزيز قوة القيم والمثل والسياسات وأنظمة الحكم المحلية فيها، فميزة هذه القوة أنها تنطلق من قوة الداخل لجذب الخارج والتأثير فيه وإرغامه الطوعي على تنفيذ ما نريد، وبدون وجود هذه القوة في الداخل لن يكون للفعل الخارجي أية قيمة مهما بذل فيه من جهود وأموال. لذا على دول المنطقة -إذا كانت راغبة بالحصول على قوة ناعمة تنافسية ومؤثرة-أن تبدأ سريعا بإصلاح عوامل الضعف الداخلية التي تؤثر عليها سواء في موارد قوتها الناعمة ام قوتها الصلبة، وطريقة التعاطي بالقوتين في الميدان الداخلي والدولي.

الخاتمة

إن صورة البلدان وجاذبيتها تعتمد اليوم كثيرا على قوة قيمها وسياساتها المحلية والدولية. وهذه القوة لا تعزز مكانة الدولة الخارجية فقط، إنما تعزز مكانتها الداخلية من خلال تعزيز ثقة مواطنيها بأنفسهم وبنظامهم السياسي وبمستقبلهم. لذلك تحتاج ليبيا، إلى تطوير قوتها الناعمة؛ لتجنب تعرضها إلى اهتزازات مستمرة، تدفعها إلى حالة عدم استقرار دائمة تتسبب في إعادة تشكيلها بما لا يتوافق مصلحة شعبها، لاسيما مع الانفتاح الذي خلقته تحديات العولمة بمختلف أشكالها، وما تنطوي عليه هذه التحديات من اندفاع تلقائي أو متعمد لثقافات وأيديولوجيات وسياسات قد تهدد أحيانا أمنها . وأي تجاهل لتأثير القوة الناعمة في السياسة الدولية، سيقود البلاد إلى نتائج كارثية بعيدة المدى على الصعيدين الداخلي والخارجي. ليبيا في هذه الظروف تواجه تحديات خطيرة، بسبب مرورها بتغيرات حقيقية، بعضها ناجمة عن فواعل داخلية وإقليمية، وبعضها الآخر ناجم عن التفاعل مع التطورات المعقدة والمتشابكة والعميقة الحاصلة في الميدان الدولي، وإزاء هذا الوضع الحرج بات من الضروري إعادة النظر في الاستراتيجيات والسياسات القديمة التي أثبتت فشلها، على أن يكون هناك استعداد لتبني استراتيجيات وسياسات جديدة تنسجم مع حاجة الشعب الليبي وحجم التحديات التي يوجهها، فيجب علي الليبيين حكومة وشعبا ترتيب بيتهم الداخلي ترتيبا جيدا يضمن لهم التعيش السلمي والتداول السلمي على السلطة ومن تم الجمع بين قوة صلبة عاقلة، وقوة ناعمة جاذبة.

نستنتج من هذه الدراسة ما يلي :-

1. من الخطأ الاعتقاد بأن التأثر في الآخرين بواسطة القوة الناعمة حديث وظهر فجأة إلى عالم العلاقات الدولية.
2. إن أي دولة تعمل في المسرح الدولي و لا تكون لها قوة ناعمة تحرك الآخرين وتشد أبصارهم لن تكن دولة ناجحة في خلق نموذجاً فعالاً و مؤثراً يحددا به .
3. أن قوة الجاذبية والهيمنة الطوعية عامل مهم للوصول إلى النتائج المنشودة بعيداً عن القوة الصلبة في العلاقات الدولية.
4. إن الإصرار على أهمية القوة الناعمة لم يتولد من فراغ، فحتى منتقدي القوة الناعمة لم يتجاهلوا أهميتها وتأثيرها.
5. الاستعمال الفاعل للقوة الناعمة يساعد على احتواء النزاعات الفكرية المدمرة والحركات المتطرفة .
6. أغلب الشعوب تمتلك القوة الناعمة ولكن لا تجيد استعمالها أو لا تعرف قيمتها .

نوصي :-

1. يجب قيام منظمات المجتمع المدني بالدور التوعوي والتثقيفي للشعب حول القوة الناعمة وما تقدمه في تحقيق الطموحات الداخلية والخارجية .
2. يجب على الشعب الليبي ترتيب بيته الداخلي وفض النزاعات الداخلية والانتباه إلى المصلحة العامة وتغليبها على المصالح الدنيا .
3. التوعية الشعبية وإحياء مقومات القوة الناعمة في ليبيا .
4. يجب على الحكومة قراءة الوضع بكل حيادية والقيام بحملات توعية ثقافية للشعب .
5. العمل الحثيث من الليبيين شعبا وحكومة لدعم إقامة الاستقرار المجتمعي والسياسي .
6. التوعية بأهمية ومكونات القوة الناعمة ودورها في النهوض بالبلاد .

المراجع :-

1- جوزيف س-ناي ، ترجمة د محمد توفيق البجيرمي ، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية ، ط 1 ، الرياض، مطبعة العيبكان ،2003، ص 12-13.
2- المرجع نفسه، ص 14 .
3- المرجع نفسه، ص 24.
4- المرجع نفسه، ص 27 .
5- علي محمد امنيف الرفاعي ، القوة الناعمة و أثرها في مستقبل الهيمنة الأمريكية ' ورشة عمل أكترونية ، كلية الحقوق جامعة النهرين ، الثلاثاء 2014/04/14 ، 46 .
6- توفيق عبدالسلام ، الولايات المتحدة بين القوة الصلبة و القوة الناعمة ، ط 1، الدوحة ، مركز الجزيرة للدراسات، 2008 ، ص 9 -10 .
7- ___ ، القوة الناعمة في الشرق الأوسط ، ص 3
8- توفيق عبدالسلام، مرجع سابق، ص 11 .
9- جوزيف س-ناي، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية ، مرجع سبق ذكره ، ص 65-66 .
10- توفيق عبدالسلام، مرجع سابق ، ص 12 .
11- جوزيف س- ناي، مفارق القوة الأمريكية ، مصدر سابق ، ص ص 39-40 .
12- المصدر نفسه ، ص 40 .
13- جوزيف س-ناي ، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية، مرجع سبق ذكره ، ص 32.
14- المصدر نفسه ، ص 32 .
15- المصدر نفسه ، ص ص 39 - 149.
16- المصدر نفسه ، ص ص 22-44-85-86 .
17- المصدر نفسه ، ص 136 .
18- المصدر نفسه ، ص 137.
19- يوسف محمد جمعة الصواني، اتجاهات الرأي العام العربي نحو الديمقراطية: تحليل نتائج الدراسة الميدانية،.ط1. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2014. ص 121.
20- جودت هوشيار، جوزيف ناي ونظرية القوة الناعمة، 2013، مقال منشور في الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنيت) على الموقع الالكتروني: http://goo.gl/KAwRp8 .
21- ليبيا التحديات الاقتصادية بعد الثورة، موقع مركز كارينغي للشرق الأوسط ، 2015/11/15.
22- فرج نجم، القبيلة والإسلام والدولة، الجزء الثاني، دار الدعوة، القاهرة، 5111، ص 92-99 .
23- ويكيبيديا، وضع حقوق الإنسان في ليبيا، 27/مارس / 2020 .
24- حسن نافعة، القوة الناعمة ودورها في المجتمع، مقال منشور في الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنيت) على الموقع الالكتروني: http://goo.gl/81HgBc
25- كويست وفرسسيفيس ، ليبيا بعد القدافي عبر و تداعيات المستقبل، تقرير مقدم للأمم المتحدة ، مؤسسة سميت ريشار دنسون، المعلومات متوفرة في مكتب الكونغرس تحت رقم (ISBN: 978-0-8330-8489-7) الرقم المعياري للمكتب، ص 77.
26- خالد عليوي، دور القوة الناعمة في تشكيل الشرق الأوسط ، شبكة النبأ. M.annabaa.org/aradic/studies
27- المصدر نفسه .

الآثار الاقتصادية للهجرة غير الشرعية على ليبيا

The Economic Impacts of Illegal Immigration on Libya

د. ناصر ساسي الطويري
عضو هيئة تدريس، كلية الاقتصاد الخمس، جامعة المرقب

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز أهم الآثار الاقتصادية للهجرة غير المشروعة على ليبيا خلال العقدين السابقين، وذلك اعتمادا على المنهج الوصفي ومنهج دراسة الحالة أو المونوجرافي كمكمل له لتفسير بعض البيانات.

توصلت هذه الدراسة إلى عدة نتائج أهمها إن للهجرة غير المشروعة آثار سلبية على الاقتصاد الليبي لها علاقة بارتفاع المستوى العام للأسعار وتزايد نشاط السوق الموازي على حساب السوق الرسمي في ليبيا.

Abstract;

This study is aimed to highlight the most important economic effects of illegal immigration to Libya during the past two decades, depending on the both descriptive, and the case study (monographic) methodologies as a complement to the interpretation of some data. This study reached several results, the most important is that the illegal immigration has negative effects on the Libyan economy specially related to the rise in the general level of prices and unemployment in Libya.

أولاً: مقدمة

تعتبر الهجرة خاصية إنسانية سكانية تتمثل في الانتقال من مكان إلى آخر إما بحثا عن حياة أفضل أو هروبًا من وضع سيئ. هذه الخاصية الديموغرافية المتمثلة في حق التنقل تم الاعتراف بها عالميًا منذ أكثر من ربع قرن ضمن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. من ناحية اقتصادية يمكن أن يكون للهجرة آثار سلبية أو إيجابية، سواء على المجتمعات المهاجَر منها أو المُهاجَر إليها.

تشير تقديرات الأمم المتحدة إلى أن عدد المهاجرين في العالم وصل إلى حدود 200 مليون شخص، وأعلنت منظمة الهجرة والمفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة، في بيان مشترك أنه حتى 21 ديسمبر من 2015، عبر حوالي 972 ألفًا البحر المتوسط، بحسب أرقام المفوضية العليا للاجئين(المفوضية العليا للاجئين، 2016).

لكن بقدر ما يسهم المهاجرون في بناء المجتمعات المستضيفة، فأن الهجرة قد تتسبب في خلق توترات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية في البلدان المُهاجَر إليها، وهو ما جعل موضوع الهجرة الدولية ينتقل إلى صدارة الاهتمامات الوطنية والدولية. وأصبحت الهجرة الوافدة من المسائل المقلقة في عدد متزايد من البلدان، الأمر الذي حدا بهذه البلدان، لاسيما في السنوات الأخيرة، إلى تشديد الإجراءات تجاه المهاجرين إليها وطالبي حق اللجوء.

تعد ليبيا من أكثر أسواق العمالة في المنطقة استيعابا للعرب والأجانب، ومع تزايد العمال الوافدين يتخوف بعض الليبيين من أن تصبح الكتلة الاجتماعية الوافدة أغلبية في ظل ارتفاع نسبة البطالة إلى 19% حسب تقديرات عام 2014، وتكتظ شوارع ليبيا وميادينها بآلاف العمال غير المنظمين (مجموعة البنك الدولي، 2016)، في ظل ما يسمى ابتزاز سماسرة العمل غير المرخص لهم وفوضى سوق العمل، فضلا عن ضعف الحماية القانونية للعمال وعدم تحديد الأجور. نادرًا ما تحلل الجهات المانحة النتائج الاقتصادية "لاستثماراتها" في البرامج والمشروعات على مستوى العالم ففي حين أنَّ الحكومات تميل إلى تقييم آثار اللاجئين وتكلفتهم على المجتمع المضيف، تتبع الجهات المانحة والمنظمات غير الحكومية منحىً آخر، حيث تركز على نتائج مشروعاتهم المتعلقة بتطوير مهارات اللاجئين و توليد الدخل أو تقديم المساعدات المادية للاجئين ، مهملة في نفس الوقت الآثار السلبية على دول العبور والتي على رأسها الدولة الليبية.

تفاقم أعداد المهاجرين نحو أوروبا خصوصا بعد أحداث الربيع العربي 2011، وأصبحت الهجرة غير الشرعية نحو أوروبا واضحة المعالم، حيث يتضح أن مصدر الهجرة هو

مناطق الشرق الأوسط ودول القرن الأفريقي والساحل والمغرب العربي، تتم أولى مراحل التهجير بالدخول إلى ليبيا كخطوة أولى، ثم التوجه نحو الساحل الليبي حيث الشواطئ يليها التجمع أخيرا للتوجه إلى أوروبا عبر القوارب، حيث يحاول مهربي البشر و سماسرة الهجرة إظهار طرق التهريب نحو أوروبا بشكل سلس كأن رحلة الوصول إلى أوروبا جولة ترفيهية. هذا يكون مقابل تكلفة مالية يدفعها المهاجرين إلى جهات معينة، ففي دراسة ميدانية استهدفت المهاجرين إلى ليبيا (هاني الترهوني، 2014) بينت إن 73.41% قد دفعوا أموالا قبل دخولهم على ليبيا، حيث كانت إجمالي القيم المدفوعة خلال السنة 700 ألف دولارا أمريكيا في المتوسط، وإن 62.12% منهم قد دفعوا هذه الأموال لأفراد معروفين مختصين بتهريب العمال إلى ليبيا (71.6% منهم غير ليبين). ولعل غياب دولة المؤسسات في ليبيا جعل من الأعوام الأخيرة تتسم بنوع من الانفلات الأمني عزز لأن تكون ليبيا وجهة مفضلة للمهاجرين غير الشرعيين سواء إلى ليبيا أو عبرها نحو أوروبا. هذه الرحلات المحفوفة بالمخاطر والمدفوعة الثمن للوصل إلى ليبيا تتم عبر خطوط شبه معروفة هي كالتالي (HRW Report, 2018):

أ- رحلة الهجرة من دول القرن الأفريقي والتي تكون وجهتها عادة إلى مدينة الكفرة الليبية قد تستغرق في المتوسط 28 يوما مقابل متوسط تكلفة 340 دولارا أمريكيا للمهاجر الواحد.

ب- من دول الساحل الأفريقي للوصول إلى منطقتي القطرون وأم الأرانب الليبيتين تستغرق في المتوسط 22 يوما مقابل متوسط تكلفة 220 دولارا أمريكيا.

ت- من دول الشرق الأوسط تكلفتها في المتوسط حوالي 100 دولارا أمريكيا.

ث- رحلة الخروج من ليبيا إلى أوروبا تكلف عادة في المتوسط 2000 دولارا أمريكيا.

ومن الجدير بالذكر قد يضطر المهاجر لقضاء سنوات داخل ليبيا لتغطية تكاليف الوصول إلى أوروبا عبر السواحل الليبية، وهو ما سنتناول تداعياته لاحقا عند دراسة أسباب وآثار هذه الهجرة على الاقتصاد الليبي.

ثانياً: الأسباب الاقتصادية للهجرة إلى ليبيا وأوروبا

ينظر إلى العوامل الاقتصادية على أنها المفسر الأساسي لظاهرة الهجرة ، وأن البعد الاقتصادي يستوجب النظر إلى العوامل الاقتصادية الطاردة في مجتمع الإرسال مثل البطالة والتضخم وقلة فرص التوظيف وغيرها. هذا ما ذهب إليه العديد من المفكرين من أن العامل

الاقتصادي يعتبر من أهم العوامل الطاردة ، والجاذبة للهجرة فمن أهم العوامل التي يمكن أن تؤثر في شخص أو أسرة و تدفعها للهجرة هو ما يلي:

1. دخول الأفارقة والعرب الباحثون عن عمل من الدول الفقيرة إلى ليبيا خصوصا في العقود الأخيرة لم تحكمه قوانين واضحة وصارمة مما أدى إلى إن ليبيا أصبحت وجهة مشاعة ومعروفة وسهلة لدى جزء كبير من المهاجرين الباحثين عن عمل (أكثر من مليون ونصف مهاجر كانوا في ليبيا قبل فبراير 2011).
2. الموقع الجغرافي لليبيا يشكل تكلفة أقل مقارنة بالدول الأخرى علها معبر رئيس للمهاجرين من أفريقيا إلى أوروبا، كما إن سهولة الدخول إلى ليبيا بسبب امتداد حدودها التي تمتد لآلاف الكيلومترات في مناطق تتعذر مراقبتها خصوصا في ظل الانفلات الأمني الحاصل، يؤكد لى ذلك دخول أكثر من 68% من المهاجرين عبر منافذ غير رسمية.
3. تعتبر ليبيا دولة نفطية في نظر نسبة كبيرة من المهاجرين تعيش على ريع النفط جعلها وجهة لأنظار المهاجرين من الدول الأفريقية الفقيرة.
4. الاختلاف بين معدل النمو السكاني ومعدل النمو الاقتصاد في الدول المصدرة للمهاجرين أوجد صعوبة في إيجاد فرص عمل مما أدى إلى تنامي ظاهرة البطالة في تلك الدول، حيث تشير الدراسة (الترهوني، 2014) إلى أن ما يقارب نسبته 62% من المهاجرين إلى ليبيا قدموا لعدم الحصول على عمل في بلدناهم الأم.
5. التباين في مستويات الدخل والخدمات الاجتماعية مثل السكن والتعليم بين ودول الوجهة، وكما يقول (تابينو) (Tapinos, 2000) إن الهجرة هي رد فعل تجاه التخلف الاقتصادي، وكلما زاد الفرق زادت دوافع الهجرة، حيث إن حوالي 40% من المهاجرين قد أتوا إلى ليبيا نسبة إلى الأوضاع الاقتصادية السيئة في بلدانهم.
6. عدم العدالة في توزيع الدخل في أغلب الدول مصدر الهجرة، مما أدى إلى انعدام العدالة الاجتماعية وزيادة التفاوت الاجتماعي، ومن المعلوم إنه كلما كانت الأجور مرتفعة في العمل الجديد كلما زادت الرغبة في الانتقال والهجرة.
7. التوظيف غير الملائم للثروات الاقتصادية المتوفرة في تلك الدول مما أدى إلى زيادة نسب الفساد الاقتصادي وضياع الفائض الاقتصادي الحقيقي.
8. غياب التكامل الاقتصادي الداخلي بين القطاعات الاقتصادية المختلفة في دول المصدر.

9. عجز الموازين التجارية والتبعية الاقتصادية للدول الغربية سمات أدت إلى فقر اقتصاديات دول المصدر وبذلك عجزها على الإيفاء بمتطلبات جزء كبير من مواطنيها.
10. عدم توازن الاقتصاد العالمي في استغلال موارد الشعوب وخيراتها أدى أيضا إلى تفاقم فقر بعض الدول خصوصا منبع الهجرة، ولعل الفقر الشديد هو السبب الرئيسي وراء الهجرة ، ففي بعض الأحيان تحدث مجاعة أو أوبئة تؤدي إلى طرد السكان من موطنهم الأصلي ، فالعامل الاقتصادي يؤدي دوراً رئيسياً في الحركات البشرية وهجرة السكان ، فإن تدني مستوى المعيشة والفقر الشديد وظروف العمل السيئة دفعت الإنسان إلى الهجرة، سواء كانت هجرة داخلية أو خارجية.

ومن الجدير بالذكر هنا، إن أصحاب نظرية التبعية الاقتصادية كـ (ميردل) و(ماران) يؤكدون بأن الدول النامية تقع في تبعية الدول الغنية، حيث تطور الرأسمالية نتج عنه نظام دولي عالمي مكون من دول مركزية متطورة، ودول محيطة متخلفة. هذا جراء استغلال الدول المركزية للدول المحيطة ونشوء العلاقة غير المتكافئة بين الشمال والجنوب (Segerfeldt, 2015).

11. كلما كان التوقع في الحصول على عمل جديد كبيرا، كلما زادت الرغبة في ترك العمل الحالي والهجرة، علاوة على ذلك ، فإن البيانات الخاصة بالحوافز الاقتصادية كشفت عن أنه في كثير من الأحوال تكون تلك الحوافز الاقتصادية هي الأمر القاطع والمسبب للهجرة ، حيث إن التباين في المعيشية للسكان في الدول المرسلة من جانب ، والدول المستقبلة من جانب آخر تكون هي العامل المشجع على تدفقات الهجرة.
12. كلما كانت تكاليف ترك العمل منخفضة، تزداد الرغبة في ترك العمل والهجرة.
13. لذلك، تعتبر الدوافع الاقتصادية من أقوى الأسباب لدى المهاجرين بغية تحسين أحوالهم الاقتصادية من فقر ومجاعات وتناقص فرص العمل الأمر الذي ينمي فكرة الهجرة كسبيل للتخلص من ذلك الواقع ، والهجرات الأفريقية غالباً ما تحدث نتيجة لعدم التوازن بين الموارد الاقتصادية في المنطقة الأصل من جهة ، ومتطلبات السكان من جهة أخرى.

ثالثا: آثار الهجرة غير الشرعية على الاقتصاد الليبي

آثار الهجرة قد تطال البلد الأم والبلد الذي تتم الهجرة إليه، فقد ركَّز مؤتمر إيكارا 1 (المؤتمر الدولي حول مساعدة اللاجئين في إفريقيا)، 1981، وإيكارا 2 لعام 1984(Belts, 2004)، على "العبء" الذي يفرضه اللاجئون على مضيفيهم، والمتمثل في ترتيب تكاليف

إضافية على الموازنة العامة ومخصصات الرفاه الاجتماعي، وإعاقة النمو الاقتصادي وإرباك الأسواق والتسبب بتدهور الأوضاع البيئية ورفع مستوى التوتر في الدول المستضيفة التي تكون أصلًا دولًا هشة متأثرة بالنزاع. بالمقابل كان هناك الجانب الإيجابي للجوء، وعلى العموم، عادة ما يُحتج بأنَّ "تكاليف" اللاجئين على مضيفيهم (المتمثلة في ارتفاع أسعار الغذاء والسلع وانخفاض معدلات الأجور المحلية وتزايد الضغوط المالية وارتفاع مستوى التدهور البيئي) تفوق المزايا الاقتصادية الجزئية والكلية الأخرى، وفيما يلي نوجز بعض أهم الآثار على الاقتصاد الليبي وبعض متغيراته.

1. الأثر على سوق العمل الليبي:

تقول بعض النظريات الاقتصادية إن كل عامل مستورد من الخارج لأغراض العمل داخل البلد يؤدي إلى إحلاله محل العامل المحلي، ففي الاقتصاد الليبي أدى وجود سوق عمل موازية للعمالة غير الشرعية التي تقبل بمعدلات أجور منخفضة وشروط قاسية للعمل مؤدية إلى عزوف بعض العمال المحليين عن ممارسة تلك الأنشطة تؤدي في النهاية إلى خلق تفاوتًا في الفرص، وذلك يؤدي إلى مشاكل منها عدم إيجاد المواطن لفرص عمل داخل بلده وبالنهاية إلى ارتفاع نسبة البطالة التي حوالي 19% في سنة 2015، مقابل 48.7% نسبة البطالة في صفوف الشباب الليبي (الطويري، 2017).

كما أن جل المهاجرين غير الشرعيين في ليبيا يعتبرون ضمن فئة العمالة غير الماهرة، وبذلك هم يشكلون خللا اقتصاديا في سوق العمل الليبي مفاده ضعف الإنتاج والإنتاجية بالاقتصاد، بالإضافة إلى أن جزء كبير منهم يعملون في أنشطة غير مشروعة تعتبر من ضمن أنشطة الاقتصاد الخفي وهي ذات أثر سلبي للغية عل الاقتصاد والمجتمع الليبي ككل، حيث أن ما نسبته حوالي 11.5% يعملون في أنشطة يعاقب عليها القانون الليبي أهمها سرقة السيارات والمحال التجارية، تهريب العملة وتزويرها، وتهريب المعادن الثمينة، إدخال المخدرات والمتاجرة بها، تصنيع وبيع الخمور والاتجار بالعملات الصعبة في السوق الموازية (الترهوني، 2014).

كما أن ما نسبته 3.5% يعملون كموزعين للأشرطة والصور والمجلات المخلة بالآداب، أو تشغيل بعض الفتيات في بيوت الدعارة أو الأشراف عليها أو ممارسة السحر والشعوذة. وأن ما نسبته 13.5% يعملون كسماسرة في تهريب المهاجرين وتشغيلهم.

هذا الاقتصاد الخفي يعتبر مخالفة لأنظمة الدولة وقوانينها، وتجرمه معظم قوانين دول العالم ولا يسجل ضمن حسابات الدخل القومي، وبالتالي هو بمثابة تعطيل دفع عجلة الاقتصاد الليبي وانحراف لأنشطته الاقتصادية عن مسارها الصحيح (Tawiri & et al, 2018).

2. الأثر على الميزانية العامة:

من جهة تسربات الميزانية، الإنفاق العام- فإن جزء من المهاجرين غير الشرعيين في ليبيا يحملون أمراضا متعددة ومزمنة، وهذا يشكل خطر كبير على صحة أفراد المجتمع الليبي وتحمل الدولة الليبية نفقات العلاج باعتبار إن المهاجرين غير الشرعيين لا تتوفر لديهم الإمكانات اللازمة للعلاج، خصوصا إذا ما علمنا إن ما نسبته 38.3% يعانون من التهاب الوباء الكبدي، و 16.7% يعانون من الإيدز، و 15% يعانون من أمراض صدرية، وأن حوالي 15% منهم يعانون من أمراض أخرى كالقلب والسكري وفقر الدم.

بالإضافة إلى هناك الكثير من المهاجرين قيد الحجز تنفيذا للأحكام القضائية وإن تكلفة إقامة النزيل الواحد لمدة عام تقدر ب 1230 دينار ليبي، يضاف إليها تذكرة الترحيل من ليبيا 400 دينار ليبي، وإذا ما أخذنا في الحسبان الأرقام الكبيرة لعدد المحجوزين والمسفرين، فإن أموالا تقدر بملايين الدينارات تتحملها الميزانية العامة للدولة كثيرا ما تؤدي في النهاية إلى عجز في الموازنة.

من جهة الإضافات، الضرائب والرسوم الجمركية وما في حكمها، وإذا ما علمنا إن إيرادات الميزانية من ضرائب ورسوم جمركية تعاني من قلة التحصيل تأثرا بالوضع السياسي والاقتصادي الراهن للبلاد، فإن عدم دفع المهاجرين غير الشرعيين للضرائب، حيث إن جلهم يتقاضون أجورهم نقدا، مما يسهل من عملية التهرب من دفع الضرائب المفروضة على الدخل، ويؤدي إلى تراجع إيرادات الدولة، وفي المقابل تكبدها نفقات مرتفعة يحصلون عليها المهاجرين كمستحقات لبعض الخدمات مثل الرعاية الاجتماعية والصحية ومخصصات الرفاه الاجتماعي وبرامج المساعدات الغذائية، كل ذلك يقود إلى عجز في الميزانية العامة للدولة الأمر الذي تأثر به الاقتصاد الليبي سلبا في حين إنه حقيقة في أمس الحاجة لكل مصدر من مصادر الدخل للإعانة على وطأة الأزمة الاقتصادية التي يمر بها، حيث يقدر العجز بالميزانية العامة لليبيا في 2015 بحوالي 1.46 مليار دينار ليبي (الطويري، 2017).

3. الأثر على سعر الصرف والمستوى العام للأسعار:

من المعروف إن زيادة التعاملات في تلك الأنشطة غير المشروعة والتي ذكرنا بعضا منها أعلاه، يؤدي إلى ارتفاع الطلب على النقود، وهذا يؤثر على كمية النقود المستخدمة في

الاقتصاد الرسمي خصوصا إذا ما علمنا إن حوالي أكثر من 29 مليار تتداول خارج الجهاز المصرفي، ضمن نطاق ما يعرف بأزمة السيولة المزمنة التي يعاني منها الاقتصاد الليبي منذ سنوات.

هذه السيولة يجب أن تكون قيمة ينتجها العمل، وقيمة تنتج السلع والخدمات في المقابل، حيث كان من الأفضل توظيف هذه السيولة في مشاريع حقيقية إنتاجية تعود بالنفع العام لا ضخها في تنمية وترقية تلك الأنشطة غير المشروعة التي تؤدي على زيادة العوائد النقدية نتيجة لأنها لا تفرض عليها رسوم، وبالتالي تجذب أكبر قدر من الموارد والتي في النهاية تؤثر سلبا على سوق النقود والكفاءة الاقتصادية بالبلاد.

باعتبار إن الاقتصاد الليبي يعتمد اعتمادا كبيرا على الواردات من السلع، في المقابل محدودية إنتاج السلع محليا، فإن ذلك جعل من سعر صرف الدينار الليبي مقابل العملات الصعبة متغيرا هاما ومؤثرا في تحديد المستوى العام للأسعار، وإذا ما نظرنا إلى تزايد تحويلات العمال المهاجرين غير الشرعيين إلى خارج ليبيا من العملة الصعبة والتي يحصلون عليها عادة من خارج الجهاز المصرفي، فإن ذلك يؤدي إلى تنامي نشاط السوق الموازية للصرف الأجنبي، مما أتى بنتائج سلبية على قيمة الدينار الليبي مقابل العملات الصعبة. إضافة لذلك، فإن زيادة مستوى الاستهلاك السلعي بشكل عام العائد جزئيا إلى ارتفاع نسبة المهاجرين إلى ليبيا، أدى إلى زيادة الطلب للاقتصاد على حساب العرض الكلي، مما أدى إلى ارتفاع في المستوى العام للأسعار وتفاقم ظاهرة التضخم خصوصا في الأعوام الأخيرة.

4. النمو الخفي والنمو الاقتصادي:

تعتبر الهجرة غير الشرعية وتنامي نشاطها من محركات نمو ظاهرة الاقتصاد الخفي، حيث من سمات تفشي ظاهرة الهجرة غير الشرعية هو التهرب الضريبي وغسيل الأموال وتنامي دور القطاع الخاص غير المسئول، حيث عدم وجود ضرائب على إيرادات ودخول هذا النوع من الاقتصادات، يزيد من الحوافز لدى الأفراد في الانخراط في مثل الأنشطة غير المشروعة، وهو ما يترتب عليه آثار سلبية على مستوى الاقتصاد أهمها فشل استقرار السياسات الاقتصادية وتشويه مؤشرات الاقتصاد الكلي التي قد تؤدي إلى وضع خطط وسياسات ليس في محلها نابعة من تشويه المعلومات الحقيقية والاستناد على غيرها زائفة تؤدي بالاقتصاد للتحول للاقتصاد الخفي الذي ينمو ويزدهر على حساب النمو الاقتصادي الحقيقي.

النتائج:

- أصبحت الهجرة غير المشروعة من أهم المسائل المقلقة في معظم الدول، حيث إنها قد تسبب في خلق توترات سياسية واقتصادية واجتماعية في البلدان المهاجر إليها.
- تفاقم أعداد المهاجرين نحو أوروبا وهو في تزايد مستمر، ومصدرها مناطق الشرق الأوسط ودول القرن الأفريقي والساحل والمغرب العربي.
- أهم العوامل المؤثرة في هجرة الأجانب إلى ليبيا كونها معبر رئيس لأولئك المهاجرين من أفريقيا والشرق الأوسط إلى أوربا، وأسباب سياسية واقتصادية أخرى أهمها البطالة والفقر والتفاوت الاجتماعي والاقتصادي في تلك الدول.
- هناك أعداد كبيرة من المهاجرين في ليبيا يعتبرون من ضمن فئة العمالة غير الماهرة يشكلون خللا اقتصاديا في سوق العمل الليبي مؤديا إلى ضعف الإنتاج والإنتاجية في الاقتصاد الليبي.
- هناك عدد كبير من المهاجرين غير القانونيين في ليبيا يعملون في أنشطة غير مشروعة يعاقب عليها القانون الليبي وتدرج ضمن أنشطة الاقتصاد الخفي.
- تتحمل الميزانية العامة في ليبيا نفقات متزايدة لعلاج المهاجرين غير القانونيين بأعتبار أن عدد كبير منهم يحملون أمراضا متعددة ومزمنة، بالإضافة إلى تحمل تكاليف حجزهم وتذاكر ترحيلهم إلى بلدانهم.
- تزايد تحويلات ونقل العملة الصعبة إلى خارج ليبيا من قبل المهاجرين غير الشرعيين يؤدي إلى تنامي نشاط السوق الموازية للصرف الأجنبي، مما يؤدي إلى ارتفاع المستوى العام للأسعار وتفاقم ظاهرة التضخم.

المراجع:

- تقرير المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة، 2016.
- مجموعة البنك الدولي. ديناميكيات سوق العمل في ليبيا، 2016.
- ناصر الطويري. تقرير غير منشور حول السياسات الاقتصادية في ليبيا. ديوان المحاسبة الليبي. طرابلس، 2018.
- ناصر الطويري. الأثر الاقتصادي للهجرة غير المشروعة. جريدة الوسط الليبية، عدد 107. www.Alwasat.ly/news/Libya/151749
- هاني الترهوني. دراسة حول الهجرة غير الشرعية في ليبيا، مجلس التطوير الاقتصادي والاجتماعي، طرابلس، 2016.
- Belts, A. (2004). New Issues in Refugee Research: Working Paper No. 107. UNHCR, Geneva.
- HRW Report. Immigration Detention in Libya: A Human Rights Crisis, 2018.
- Segerfeldt, F. (2015). Migration and Development. Adam Smith Research Trust, London.
- Tapinos, G. (2000). The Role of Migration in Moderating the Effects of Population Ageing. OECD, Paris.
- Tawiri & others, N. (2018). The Libyan Youth Today: Opportunities & Challenges. UNFPA. Available on: https://www.Libya.unfpa.org

الوزير جنيد بن محمد البخاري - حياته وإسهاماته العلمية-

1906 – 1997م

د/ نصر الدين البشير العربي
عضو هيئة تدريس، جامعة المرقب
الباحث/ محمد نصر الدين العربي
جامعة المرقب

المقدمة:

الحمد لله الذي جعل العلم أشرف المتاجر، وأقنى الذخائر، عظمه وحث على طلبه، وأعلى درجة ذويه وأهله، فقال: ((يرفع الله الذين ءامنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات))[26].

وصلى الله وسلم، وبارك على عبده ورسوله، أصفى الأصفياء، وأوفى الأوفياء، القائل في جوامع كلمه: ((لا يشكر الله من لا يشكر الناس))[27]، ورضي عن آله وصحبه أعلام التأسي والاقتداء.

أما بعد: لقد شكلت الكتابة التاريخية في أفريقيا محور اهتمام الكثير من الباحثين والمؤرخين، الذين سعوا من خلال كتاباتهم إلى إبراز مقومات القارة الأفريقية؛ لأنهم أدركوا أن التاريخ هو الذاكرة التي تعتمد عليها الشعوب في معرفة أوجه أنماط حياتها ومن مختلف جوانبها، والاهتمام بتاريخ القارة الإفريقية لا يتأتى إلا بالبحث والتنقيب والتحقيق والإطلاع في ثنايا المصادر والمراجع للتعريف بها –ليس هذا فحسب- بل الكشف عن ما هو حقيقي، وما هو أسطوري من تاريخ القارة الأفريقية، وهذا هو الهدف الرئيسي الذي يسعى إليه المؤرخ في كتاباته التاريخية.

إن من أبرز هؤلاء المؤرخين المعاصرين الذين كان لهم إسهامات في كتابة التاريخ الأفريقي العالم الشهير جنيد بن محمد البخاري " 1906-1997م" موضوع هذه الدراسة المتواضعة الذي كان من بين العلماء الأفارقة الذين اهتموا بتاريخ أفريقيا، ومن خلال هذه النقطة يمكن أن نطرح الإشكالية التالية: كيف ساهم الوزير جنيد في كتابة تاريخ أفريقيا؟

[26] - سورة المجادلة، آية 11.
[27] - رواه الإمام أحمد في مسنده 8 / 61، برقم 7926، ط أحمد شاكر.

وتندرج تحت هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات الفرعية يمكن طرحها فيما يلي:

من هو الوزير جنيد؟ وما هي العوامل التي أثرت في تشكيل شخصيته العلمية؟ وما هي مراحل تعليمه وتكوينه؟ وما هي أهم مؤلفاته العلمية في التاريخ الأفريقي؟

وغيرها من التساؤلات التي سنجيب عليها في ثنايا البحث.

أولاً: التعريف بالوزير جنيد :

* نسبه وأوليته :

قُدر للوزير جنيد بن محمد البخاري أن يفتح ناظريه على هذه الدنيا، ومن معه من أحياء بني عصره من خلال انتمائه إلى أسرة عريقة وإلى بيت صكتوي أصيل محافظ من بيوتات حي غداد بصكتو[28] في شمال نيجيريا[29] – حفظها الله – وقد أشتهر هذا البيت في سياق تاريخ نيجيريا الحديث بفعاليته ومساهماته، وبماضيه وحاضره، وبعدد من رجالاته المعروفين بالنجابة والنباهة في العلم والسياسة، مما كان لهم تأثير في حياتها العامة في تلك الفترة التاريخية الهامة من تاريخ نيجيريا وهو ما تشكلت به أولية المترجم .

الوزير جنيد هو جنيد بن الوزير محمد بن أحمد بن غداد ليم البخاري[30] بن غطاط[31] ثاني الوزراء لخلافة صكتو، وقد اشتهرت أسرته في وطنه بأسرة "الوزير بن ليم" نسبة إلى

---

[28] صكتو إحدى الولايات الواقعة في شمال نيجيريا، تكتب سكتو بالسين، مثل السكوت أو بالصاد مثل صك، يصك صكا، كما تكتب سوكوتو، وتقول الروايات أن تسمية صكتو ترجع إلى رجل يدعى انه كان يضبط الثياب، وقيل أن تسميتها تعني الطريق، وسميت صكتو لأنها تصك أعناق الجبابرة، شيدت منذ فترة قديمة وتوسعت في البناء عام 1224ه على يد الشيخ محمد بلو ومنذ بنائها كانت إسلامية، وقد بنيت بجوار معسكر، وقسمت إلى مدينتين، مدينة الحصن القديم والحصن الجديد، وقد شيدوا في كل حصن جامعاً وبجوار الحصن سوق، وبالمدينة ثمانية أبواب، كل باب له أسمه الخاص به، فباب أسمه عتيق وهو في الجهة اليمنى نسبة لأمير المؤمنين عتيق ابن الشيخ، والثاني باب علي جيد وهو من الجهة الغربية، أما الباب الثالث فيطلق عليه باب كبرى، وأبواب منسوبة إلى أسماء الأشجار باب الرين وهو اسم لشجرة تنتشر في أرض الهوسا.

وما تمتاز به صكتو بأنها حجة السودان ، وفي ذلك يقول بعض الفضلاء قصيدة في أهميتها منها:

وصكتو حجة السودان طرا * وهذا نورها وزنوا الضياء**

للمزيد انظر: مجهول، تاريخ صكتو ، مخطوط بمكتبة الهادي الدالي، ص2، وكذلك الهادي الدالي، قبائل الهوسا، مطابع الوحدة العربية، الزاوية ، 2005، ص62-63 .

[29] تقع نيجيريا على رأس غينيا بالمنطقة المدارية ما بين خطي عرض 14.4 شمالاً، وتحدها من الغرب والشمال بنين "داهومي سابقاً" والنيجر من الشرق، بحيرة تشاد والكامرون وتصل مساحتها إلى 373 ألف ميل مربع، وهي بذلك تمتد من الخليج في الجنوب إلى الصحراء من الجنوب إلى الصحراء في الشمال تنقسم هذه المساحة إلى ثلاثة أقاليم: الشمال والشرق والغرب، وتعتر نيجيريا وحدة غير طبيعية، فحدودها لا تتفق مع ظواهر طبيعية معينة كالجبال والأنهار، بل لقد رسمت هذه الحدود تحت ظروف سياسية وتحقيقاً لقرارات م توضع على أسس جغرافية للمزيد انظر: سامي منصور، نيجيريا، عملاق أفريقيا التائه، دار المعارف، القاهرة ، 1967، ص14.

[30] محمد المبارك التكنية، الأبعاد الفنية في أشعار جينيد بالعربية، رسالة ماجستير، 1980- 1981، غير منشورة، ص16-17، وكذلك انظر: الهادي الدالي، قبائل الفلاني، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2003، ص147.

[31] كلمة غطاط أو غطاطو زيدت عليها الواو والألف لتدل على المكان.

جدها الذي تولى الوزارة لخلافة صكتو، كما عرف أيضاً الوزير جنيد بعالم صكتو نقلاً عن علي بن أيوب ناجي.

أما والد مترجمنا السيد الوزير محمد البخاري[32]، والذي توفي في سن الرابعة من عمر الوزير جنيد في العام 1910، مما أدى إلى تولي عمه الوزير محمد سمبو بن أحمد تربيته، تم تولاه أخوه الوزير عبد القادر الوزير محمد البخاري، ومن المعروف أن أولية أسرة الوزير جنيد بن محمد البخاري تنتمي – كما أكد أحمد كاني إلى أعراق عائلية ذات مكانة اجتماعية مرموقة ومقربة جداً من القصر السلطاني في نيجيريا وخاصة في منصب الوزارة[33].

ثانياً: نشأته وتكوينه الثقافي والفكري :

ولد الوزير جنيد محمد البخاري في عام 1906م، وكان مسقط رأسه مدينة صكتو في شمال نيجيريا التي سكنها أجداده منذ قرون طويلة، فسعد فيها بما سعد به أترابه وولدانه من مرأى المدينة المتميزة بنشاطاتها العلمية والثقافية المتنوعة، بعد ثلاث سنوات من الاحتلال الإنجليزي لشمال نيجيريا[34].

عندما بلغ سن التحصيل بدأ بحفظ نصيب من كتاب الله في أحد زوايا مدينة صكتو على يد الشيخ عبد القادر بن أبي بكر حتى ختم القرآن الكريم عن ظهر قلب وهو في سن الثانية عشر، وقرأ أصول الدين لعثمان بن فودي[35]، ومنظومة يحي القرطبي في الفقه[36] وقصائد العشرينات

---

[32] والد مترجمنا محمد البخاري في فترة توليه الوزارة كانت قد تعرضت البلاد إلى مجي الاستعمار الإنجليزي، ومما أخذ عليه من مواقف تجاه المحتل، بأنه أثر طريق السلم والمفاوضة على طريقة المعارضة والتصدي، والذي لم يرق لأبناء الوطن، وظهرت له معارضة تدينه على موقفه، واستطاع أن يظهر موقفه من الجانب الشرعي والأخلاقي في كتابه المسمى "رسالة إلى أهل العلم والتدبير" للمزيد انظر: الهادي الدالي، قبائل الفلان، مرجع سابق، ص147.

[33] لقد استمرت عائلة غداد بن ليم بإدارة شؤون الوزارة لمدة قرنين من الزمن، منحت هذه المدة الزمنية الطويلة أبناء الأسرة الذين تقلدوا أمر الوزارة خبرة واسعة نتيجة لممارستهم أمور الحكم وتتبعهم لعمليات الاستقطابات السياسية، للمزيد انظر: أحمد محمد كاني، حركة الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا في القرن التاسع عشر، أعمال الندوة العلمية تحت عنوان الاحتفاء بالشيخ عثمان بن فودي، الخرطوم "الايسسكو"، جامعة أفريقيا العالمية، 1995، ص77-78.

[34] احتلت بريطانيا شمال نيجيريا عام 1903م، وطبقت نظام الحكم غير المباشر على غرار بعض المستعمرات في أفريقيا، ومنها نيجيريا، استناداً على مبدأ الحكم غير المباشر، الذي جاء به فريدريك جون ديلترى لوغارد، وهو وزير مستعمرات سابق واستمرت حتى إعلان الاستقلال عنها في الأول من أكتوبر 1960م، للمزيد انظر: سليم عراب، الاستعمار البريطاني في نيجيريا 1861 – 1960م، شبكة ضياء للمؤتمرات والدراسات، ص18.

[35] هو عثمان بن محمد فودي بن عثمان بن صالح بن هارون بن محمد غورطو ابن جبو بن محمد ثبنو بن أيوب بن ماسران بن أيوب بن بابا بن موسى جكولو، وتلقب بفودي وتعني باللغة الفلانية الفقيه ، ولد في إمارة غوير، بمدينة مرط بمنطقة غلم، يوم الأحد الأول من محرم عام 1162ه – 1752/11/8م، وكتاب أصول الدين، هو أحد أنتاجاته العلمية، والذي طبع طبعة حجرية بدون تاريخ يقول في مؤلفه: "هذه أصول الدين ... يجب على كل مكلف أن يعتقدها كما جاءت .... وأما من كاذ من أهل البصيرة فيجب عليه أن يعمل الفكر في هذه الأصول .... لأن الدين مبني على التبصر، ولا سيما إذا بلغ المرء منهم مقام الدعوة إليه" . للمزيد انظر: الهادي المبروك ادالي، قبائل الفلان، مرجع سابق، ص63-69.

وغيرها، وعلى المعلم يحي بن خليل: مقامات الحريري،[37] وبقية قصائد العشرينات، وكتاب ملحة الأعراب[38] وغيرها، ثم أخذ اللغة من علماء عصره.

وقد كان أخوه الوزير عبد القادر حريصاً كل الحرص على أن تتناسق المقومات المعرفية في شخصية شقيقه، وأن يتعلم اللغة العربية والهوسية والفلانية وعلوم المقاصد الإسلامية، لذلك تعهده بالرعاية والتوجيه في البيت، وفي المدرسة القرآنية "بمدرسة محمد بيلو"[39]، حيث تدرج في العلم حتى وسعت مداركه في العلوم العقلية والنقلية والنحو، والصرف، والأدب والتاريخ، والتفسير، وغيرها من العلوم الأخرى.

ومن أولى الكتب التي بدأ بدراستها الوزير جنيد: كتاب أصول الدين للشيخ عثمان بن فودي، وألفية ابن مالك[40]، ومتن الأخضري،[41] والعشماوية،[42] ورسالة ابن أبي زيد القيرواني،[43] وعشرينات القزازي، وقد تتلمذ على مجموعة من أعلام عصره نذكر منهم: الإمام عبد القادر إمام مسجد صكتو، والمعلم يحي بن الوزير خليل الذي تعلم على يده اللغة، والقاضي يحي النووي الذي استمر معه لفترة طويلة من الزمن فدرس عنه كتباً في النحو منها: قطر الندى

---

[36]- للشيخ العلامة أبي بكر يحي بن سعدون القرطبي، ت: 767هـ، منظومة القرطبي في العبادات على مذهب الإمام مالك، ط: الحلبي، 1348، من أشهر المنظومات الفقهية في المذهب المالكي أو (أرجوزة الولدان في الفرض والمسنون) والتي يبلغ عدد أبياتها (117) بيتاً

[37]- العلامة القاسم بن علي محمد الحريري البصري، ت: 516هـ، مقامات الحريري، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، 1978،1398، وهي مقامات أدبية وهي من أشهر المقامات التي هي فن من فنون الكتابة العربية.

[38]- العلامة القاسم بن علي محمد الحريري البصري، ت: 516هـ، ملحة الإعراب، ط: دار السلام، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 1426هـ، وتعد الملحة من أوائل متون النحو وعدد أبياتها (374) بيتا، وتتميز بسهولة العبارة وكثرة الأمثلة، والتي نظمها الحريري تلبية لطلب صديق له.

[39] هو محمد بيلو بن عثمان بن فودي، ولد يوم الأربعاء من شهر ذي القعدة سنة 1195ه / 1780م في بيت علم ووقار، وأبوه عثمان فودي مؤسس دولة الفولاني الإسلامية، كانت الظروف مهيأة ليتشبع بتعاليم الإسلام منذ صغره، درس على يد والده العلوم الإنسانية ودرس على يد عمه العربية والبلاغة، تنقل من بلد إلى آخر بحثاً عن المزيد من العلم، له عدة مؤلفات في جميع المجالات منها، اتفاق الميسور في بلاد التكرور، وكتابه لرباط والحراسة، وكتاب مرأة القلب في معرفة الرب وتنبيه الأخوان على أحكام الزمان وشرح حزب البحر، للمزيد أنظر : الهادي المبروك الدالي، قبائل الفلان، مرجع سابق، ص97.

[40] ألفية ابن مالك مؤلفها: محمد بن عبد الله بن مالك، العلامة جمال الدين أبو عبد الله الطائي النحوي، إمام النحاة، وحافظ اللغة، توفي سنة 672، للمزيد انظر: السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج1، ص1320 وما بعدها .

[41]- أبي زيد بن عبدالرحمن بن محمد الأخضري، ت: 953هـ، متن الأخضري في العبادات على مذهب الإمام مالك، ط: مطبعة محمد علي اصبيح وأولاده.

[42]- عبدالباري بن أحمد بن عبدالغني بن عتيق، أبو النجا العشماوي القاهري الأزهري المالكي، ت:10هـ، متن العشماوية في الفقه المالكي، ط: دار الضياء، الكويت، د،ت.

[43]- أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، ت: 386هـ، الرسالة الفقهية، مختصر في الفقه المالكي، ط: دار الغرب الاسلامي.

وبل الصدى[44]، والأجرومية،[45] كما درس عنه علم التوحيد، والشيخ الفا نوح الذي درس عليه الحصن الرصين وفتح اللطيف، وعلم الصرف والعروض والبلاغة، ثم بعد ذلك انتقل إلى مدينة غوندر حيث التقى بالعالم أبي بكر بوني الذي راجع معه ما سبق أن درسه، ولكن توفي الشيخ أبي بكر ولم يكمل لصاحبنا كتاب الفريد للسيوطي[46]، كما درس جنيد عن الشيخ أحمد كبكي والذي يعتبر من علماء صكتو في علم العروض، ولم يقتصر علمه على اللغة العربية فحسب، بل شملت دراسته لغة فلفلدى[47] لغة أجداده، في فترة السلطان حسن بن معاذ 1931-1938م، وأهتم بها اهتماماً علمياً بالغاً مما حدا به إلى تأليف كتاب خاص بقواعد اللغة الفلانية أطلق عليه عقد المرجان بالتعريف على لغة الفلان[48].

وبإجمال يمكن القول إن هذه المرحلة التي تمثل نشأته العلمية والثقافية ببلدة صكتو والبلدان المجاورة لها في الفترة الواقعة بين سنتي 1910 – 1939م كان لها تأثيرها البعيد والعميق في شخصيته وفي تكوينه الذهني والعقلي، وأيضاً في مسيرته السياسية فيما بعد .

---

[44] قطر الندى وبل الصدى، مقدمة في النحو، لأبي محمد عبد الله بن يوسف بن هشام النحوي، وله عليه شرح، بدايته: الحمد لله رافع الدرجات، الخ، وقد قال: "هذه نكت حررتها على مقدمتي المسماة بقطر الندى وبل الصدى ..." وشرحه شهاب أحمد بن الجمال عبد الله بن أحمد علي الفاكهي وأطلق عليها: مجيب النداء، توفي ابن هشام ليلة الجمعة وقيل ليلة الخميس، الخامس من ذي القعدة سنة إحدى وستين وسبعمائة من الهجرة، 1360، عن عمر ناهز 69 سنة، للمزيد انظر: أبا محمد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري، شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، د.ت، ص6-10، وكذلك حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بيروت، 1941، ص1352.

[45]- العلامة أبو القاسم محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، ت: 723هـ، متن الآجرومية في علم النحو، ط: دار الصميغي، وقد بدأ المتن بالكلام عن الكلام وأنواعه، وتسلسل مع المواضيع بأسلوب سهل المنال للطالبين، ويعتبر من أهم الكتب لمن أراد أن يغوص في علم النحو والعربية.

[46] هو الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن إسحاق الدين أبي بكر بن عثمان بن محمد بن خر بن أيوب بن محمد بن الشيخ همام الدين الخضري السيوطي ولد ليلة الأحد في شهر رجب عام 1445/849، توفي والده وعمره خمس سنوات وسبعة أشهر، عاش يتيماً، حفظ القرآن وعمره لم يتجاوز ثمان سنوات، ودرس على علماء عصره، منهم: الإمام الحافظ بن حجر والمرزباني الحنفي وغيرهم، عرف بالنبوغ الفكري وفاق أقرانه بأن ألف في جل العلوم، ومن مؤلفاته، التي كانت متداولة بأفريقيا فيما وراء الصحراء، شرحه للجامع الصغير، وكتابه الهيئة السنية، ورسالته في حروف التهجي، والفريد في تقييد الشريد في علم النحو، والحاوي للفتاوى توفي – رحمه الله – ليلة الجمعة في جمادي الأولى العام التاسع عشر عن عمر ناهز الحادية والستين سنة. للمزيد انظر: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الحاوي للفتاوى، مكتبة القدس، القاهرة، 1351، ج1، ص388.

[47] من أبرز من درس عليهم اللغة الفلانية، الشيخ إبراهيم بن عبد الله، والشيخ مغاجي شوني، وغيرهما من المتظلعين في اللغة، للمزيد انظر: الهادي المبروك الدالي، قبائل الفلان، ص144.

[48] تنتمي اللغة الفلانية إلى فصائل اللغات الأطلسية الغربية، وهي من عائلة لغات النيجر الكردفانية، ويطلق عليها في النيجر ومالي وبوركينا فاسو ونيجيريا والكامرون وتشاد "فولفلدي"، وكما تسمى "بولار" في كل من السنغال وغينيا وغامبيا وموريتانيا ، للمزيد انظر: أحمد طاهر جروز، تحليل أخطاء معلمي القرآن الفلانيين في خلاوى شمال الكمرون، رسالة ماجستير، معهد الخرطوم الدولي، 1998، ص99، وكذلك: علي يعقوب، تعلم القراءة والكتابة باللغة الفلانية عن طريق الحرف العربي، بحث غير منشور، ص2.

ثالثاً: حياته العلمية :

بعد أن تضلع الوزير جنيد – خلال تلك السنوات الثلاث والثلاثين في الزوايا والمدارس بصكتو وخارجها من أمواه تلك الروافد الثقافية والعلمية الفياضة في المدرسة القرآنية، مدرسة محمد بلو، وكرع من مناهل العلوم التي كان يتدفق بها أساتذته وشيوخه الجلة من كبار علمائه ، وأصاب زاداً مغدقاً من ثمرات الحياة العقلية النشيطة آنذاك في نيجيريا، بدأ حياته العلمية فنزل ربوع العطشى نزول الماء الفرات العذب على ذي الغلة الصادي، حيث أفسحت له مساحة كبير من ودها واحتفائها بما يوازيه من أريحية وتودد، فأحال – بفضل همته وعزيمته – صحارى الجهل الجرداء في بعض ربوعها، وفيافي الأمية القاحلة في سوحها إلى ربيع دائم الخضرة بالعلم، يانع الجنى بالمعرفة، عبق الأزاهير بالفائدة.

لقد بدأ حياته العلمية بالتدريس، حيث عين معلماً في المدرسة المتوسطة بصكتو، واختار طريق العلم والمعرفة منهجاً، بما أتيح له من تفتح عقلي وحيوية غامرة واستشراق إلى آفاق غير تلك الآفاق التي قنع الناس بها كبير الأثر في الحياة العلمية والأدبية في صكتو، فلم يكد يبدأ في شق طريقه إلى التدرج حتى رأى فيه أهل صكتو عالماً واسع الباع في علم الدين واللغة والفقه والنحو والصرف، وعرفوا فيه طرازاً جديداً لا عهد لهم به من قبل ، فامتلأت نفوسهم إعجاباً به وآثار فيهم الرغبة الشديدة في طلب العلم، وفي شهوة مجلسه، فأقبلوا عليه في لهفة وشغف، وكان من أشهر من درس عليه الشيخ: "علي شاغاري" الرئيس السابق لنيجيريا، وقاضي قضاة نيجيريا الحاج أبو بكر محمد غمي، وقاضي قضاة ولاية صكتو خضر يحي، وغيرهم من الشخصيات التي لعبت دوراً مميزاً في المجالات السياسية والإدارية والقضائية والتعليمية بنيجيريا .

لقد أدرك السلطان أبي بكر الثالث في عام 1948 المنزلة السامية التي كان يتربع عليها هذا العالم الجليل والرحالة المتميز الذي جاب الآفاق، وحصل على رفيع الإجازات[49] من جلة الشيوخ ، ووثق سنده العلمي بمدارس وزوايا العلم في نيجيريا، وعرف ما من مكانة كريمة التي احتلها من تبصره في العلم، فتم تعينه وزيراً لصكتو خلفاً لأخيه الوزير عباس، يعني وزيراً للسلطان أبي بكر، أظهر خلالها جهوده ومساهماته السياسية وبرهن فيها عن إخلاصه ، وحسن تدبيره وتفانيه في خدمة البلاد والعباد، وتقدير أهل الفضل والعلماء والأعيان، وتقلد العديد من المناصب والمهام، فكان عضواً في مجلس الأمراء والرؤساء بكادونا عاصمة الولايات الشمالية

(49) الإجازات العلمية التي كانت تمنح للطلبة من قبل العلماء في عصر مترجمنا من العلماء الذين تلقوا عنهم أي نوع من أنواع العلوم والمعرفة، وهي بمثابة البراءة العلمية والتفويض للإنابة والبرهان الصادق الغير منكور لإجازة الطالب في دراسة أي فن من الفنون، وهي بمثابة شهادة التخرج التي تؤهل الطالب للتدريس في المؤسسات التعليمية كالمساجد والزوايا والمدارس، للمزيد انظر: علي محمد الصادق، الإجازات العلمية في أفريقيا، بحث غير منشور، ص66.

آنذاك ورأس وفوداً عديدة لكثير من دول العالم، وساهم في تأسيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية الذي يجمع بين المسلمين في كل نيجريا، وكان أول رئيس وزراء لشمال نيجيريا، وعين أول رئيس لمجلس المخطوطات والوثائق التاريخية بولاية صكتو.

والخلاصة أنه قد تعاون بأريحيته ومرونته وحكمته وبعد نظره مع السلطان أبي بكر الثالث، وكان له تأثيره عليه وعلى الدولة في شتى مناحي الحياة بنيجيريا، وأصبح مرجعاً تاريخياً ولغوياً وأدبياً، فضلاً عن كونه شاعراً له ملكة تصوير الحياة على طبيعتها، وغير ذلك من المقدرات العلمية وهو يكتب بثلاث لغات: اللغة العربية، واللغة الهوسية، واللغة الفلانية[50].

رابعاً: تأليفه وأثاره :

كان الوزير جنيد بن محمد البخاري – كما قدمنا – يغرف في علومه من بحر، وذلك بفضل ما استفاد من دراسته وتحصيله من العلماء الكبار في صكتو وتمبكتو[51]، ومن إدامته النظر في المراجع والمظان المختلفة طيلة حياته التي وظفها للتنقيب والمراجعة والتأليف ، فكان متنوع المعارف في علوم الأله وعلوم المقاصد والأدب، متعدد الطاقات والقدرات، وقد شهد له معاصروه من العلماء في نيجيريا وأفريقيا بذلك على علمه ونجابته، وقد حاولنا أن نجمع بعض من آثاره القلمية ومؤلفاته والتي نذكر منها[52] :

1. إتحاف الحاضرين بمرائي المسافرين .
2. إتحاف الأكياس بأخبار أقدس .
3. إتحاف الإخوان بالتبرك بالأماكن التي نزل بها الشيخ عثمان .
4. روائع الأزهار من روض الجنان، ويعتبر هذا الديوان من أكبر مؤلفات الوزير جنيد .
5. إسعاف الزائرين بترب الأولياء الصالحين .

---

(50) الذي يستخلص من أخذه لعلومه ومفهومه في المرحلة التي درس فيها اللغات وبالذات الفلانية، في المرحلة الصكتوية، عن أبرز علماء عصره، وعن كبار المدرسين، ومن أبرز أولئك الأعلام الذي اتصل بهم، وتقومت بتوجيهاتهم وعلمهم مداركه وشخصيته، الشيخ إبراهيم بن عبد الله، والشيخ مغاصي شوني، وقد كان مترجمنا معجباً بهيما أيما إعجاب، كما كان مكبراً لعلمهم وأدبهم، ومتعلقاً بطريقتهم، للمزيد انظر: الهادي المبروك الدالي، قبائل الفلان، مرجع سابق، ص144.

(51) تنبكت: مدينة تاريخية تقع على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى، بما يطلق عليه منحى نهر النيجر، تأسست في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي على أيدي طوارق مقشرن، وتقطنها قبائل الطوارق والفلان وسنغاي، والبمبارة، شهدت نهضة علمية واقتصادية، حيث شيدت بها جامعة سنكري في القرن الرابع عشر الميلادي التي كانت محجاً للعلماء، كما عرفت تجارة القوافل التي كانت ترد عليها من غدامس وطرابلس وفزان وسجلماسة وتوات وغيرها من المراكز التجارية: للمزيد انظر: أحمد بلعراف التكني، إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وأهل شنقيط، دراسة وتحقيق وتقديم الهادي المبروك الدالي، مطابع الوحدة العربية، الزاوية، 2000م، ص99، وكذلك انظر: أحمد ابير الأرواني، السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية، تحقيق الهادي المبروك الدولي، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 2001م، ص127.

(52) الهادي المبروك الدالي، قبائل الفلان، مرجع سابق، ص149-150-151.

6. إفادة الطالبين ببعض قصائد أمير المؤمنين محمد بيلو .
7. التحفة السنية بذكر بلدة صكتو البهية .
8. إتحاف القارئ ببعض قصائد محمد البخاري .
9. تفريح النفس بذكر زيارة العراق والقدس .
10. مسائل اللغوية .
11. تسلية القلوب عما أصابها من الكروب .
12. الباكورة الهنية في تعليم اللغة الفلانية .
13. تأنيس الأخبار بذكر أمراء غواندر .
14. التنزيل على كتاب خليل .
15. تعليم الإخوان بذكر من تعلمت من لغة الفلان .
16. تقريب قصيدة أسماء في التوسل بأولياء الله .
17. تلخيص إسعاف الزائرين .
18. تنشيط الزائرين لمزار أمير المؤمنين محمد بيلو .
19. التوسل بالأتقياء والكرام من النساء .
20. رحلة القدس .
21. رحلة غينيا والسنغال والمغرب الأقصى وليبيا .
22. دلائل الشيخ عثمان .
23. ديوان القصائد التي مدح بها أمير المؤمنين محمد بيلو .
24. العادات على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وتابعيه السادات .
25. عرف الريحان بذكر المشهورين من أولاد الشيخ عثمان .
26. عقد المرجان على لغة الفلان .
27. شرح تقريب قصيدة أسماء .
28. شرح قصائد المحب لأخي محمد لبو في التفسير .
29. ضبط الملتقطات من الأخبار المتفرقة والمؤلفات .
30. قلائد العقبان في ذكر أمور الشيخ عثمان .
31. قصيدة التوسلات "أدعية منظومة" .
32. المبادئ الضرورية في الدروس العروضية .
33. متحف الإخوان بما أتى في الكشف والبيان .

34. مرتع الأذهان على لغة الفلان .
35. مزار الشيخ عثمان بن فودي .
36. مزار الشيخ عبد الله بن فودي .
37. المرشد المواني في نهجية لغة الفلاني .
38. مورد الضمأن في التبرك بذكر بعض خواص الشيخ عثمان .
39. نسخ كتاب سعد على حروف أبجد .
40. النفحة الزكية عن الرياض الحجازية .
41. نيل الأرب في استقصاء النسب الفري .
42. نيل الأمل بذكر قرية ذغل .
43. الرحلة الفاخرة في زيارة ليبيا والسودان والقاهرة .
44. إدراك الأمل في التنويه بقرية طغل .
45. الرسالة الناصحة لمؤلفي المطالعة الواضحة .
46. نيل المرام بذكر ترجمة أمير المؤمنين محمد بيلو الهمام .
47. سلك الحرير في أوراد الوزير .
48. ديوان شعري، يحتوي على 39 قصيدة، وتبلغ عدد أبيات هذه القصائد ستمائة وسبعة وثمانون بيتاً "687" .

خامساً: مكتبته :

اهتم الوزير جنيد اهتماماً كبيراً بالمخطوطات والوثائق لتاريخية: فأنشأ مكتبة سنة 1963م، وتقف خزانته الغنية حتى اليوم شاهداً على اهتمامه بالمخطوطات والوثائق التاريخية وخاصة تراث نضال الشيخ عثمان بن فودي في القرن التاسع عشر.

وتدل المعلومات على أنه لم يرث المخطوطات الموجودة حالياً في خزانته من أجداده، إنما عمل عملاً جاداً بأن نقب على خفايا التاريخ بجمع المخطوطات والتحف التاريخية الهامة للمساهمة في مساعدة الباحثين في أغوار التاريخ، وتعتبر الأولى من نوعها في ولاية صكتو[53].

سادساً: رحلاته :

قام الوزير جنيد بن محمد البخاري – على العادة المتداولة بين شيوخ العلم وطلابه في القديم والحديث – برحلات ثقافية وسياسية عديدة داخل بلاده وخارجها لتحصيل العلم، والأنس

[53] الهادي المبروك الدالي، قبائل الفلان، مرجع سابق، ص147.

بمجالس العلماء، وللإطلاع على معالم الأمصار الإسلامية وواقعها، وملابسات حياتها العامة، والتعرف على دور المراكز التعليمية والمكتبات فيها، وأحياناً القيام بمهام رسمية كان يقتضيها منصبه الرسمي كوزير للدولة وللسلطان، فقام بعدة رحلات داخل بلاده صحبة السردونا أحمد بيلو بن عثمان إلى أقدز، كما قام برحلات إلى ليبيا والسودان والقاهرة والحجاز ، وقد دونها في مؤلفاته وكتاباته[54].

سابعاً: وفاته :

بعد هذه الرحلة الطويلة للوزير جنيد، وما قدمه للعلم وللإنسانية من تراث علمي نافع ومفيد، ومطالعاته وارتساماته التي أتحف بها من خلال تجاربه الحفيلة بالذكريات الزاخرة وروحه الواثقة مما نحل به وطنه وأمته من مواقف علمية، وعطاء سياسي إلى أن انتهى مطاف سفينته إلى مرافئ الخلد فالتحقت روحه راضية مرضية بربها الكريم في الأول من رمضان عام 1997 عن عمر ناهز الواحد والتسعين سنة، وعند وفاته نعاه علماء وأساتذة أفريقيا ، وتلاميذه في الداخل والخارج ، وقد رثاه إبنه محمد سمبو جينيد قائلاً[55].

غدر الزمان بسبويه زمانه ** وخليله في النحو والأشعار**

لولاه ما التاريخ جار ديله ** خيلاء في الأزمان والأمصار**

رحمه الله واسع الرحمة وأجزل له الأجر والمثوبة وكساه حلل العفو والرضوان وحباه أردية القبول والغفران وبوأه بحبوحة الجنان إنه مفضال منان.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الشيقة في سيرة ومآثر العالم الوزير محمد البخاري جنيد، وما جاء في بطون المؤلفات والكتب والوثائق والمخطوطات، للبحث عن شخصية هذا العالم الأفريقي الفذ الذي قدم لقارته "أفريقيا" ما استطاع إلى ذلك سبيلا، إنها لجولة طيبة في رياض من روضات

---

(54) المرجع السابق نفسه، ص148.

(55) اسم ناظم هذه القصيدة هو سميو ولي جنيد من نيجيريا، والقصيدة عبارة عن رثائه لولده المرحوم: الوزير جنيد محمد البخاري المتوفي في التاسع من شهر يناير عام 1997م، 16 رمضان 1417ه والناظم من خريجي جامعة الخرطوم بالسودان، والمتحصل على درجة الماجستير في اللغة العربية عام 1979م، والدكتوراه من معهد الدراسات الأفريقية والإسلامية بجامعة لندن عام 1985م، وهو الآن أستاذ كرسي في اللغة العربية بالجامعة له مشاركات في ندوات دولية في نيجيريا، والنيجر، والمغرب، والسعودية، كما له مؤلفات نذكر منها:-

1. فن المديح في مدينة صكتو بناؤه وأسلوبه.
2. من نوابغ الشعر العربي النيجيري: الوزير عبد القادر شطو وقصيدته اليانية.
3. الرحلة الفاخرة إلى أرض الله الطاهرة.

العلماء، التي اشتملت على حياته، ونشأته وتكوينه العلمي، وإسهاماته العلمية في الكتابات الإفريقية، فإنها خرجت بجملة من النتائج، ومنها ما يلي:

- حاولت هذه الدراسة المتواضعة إماطة اللثام عن شخصية علمية كانت من الشخصيات الأفريقية التي بذلت الجهد الكبير في كتابة تاريخ غرب أفريقيا.
- بينت الدراسة أن العالم جنيد ينتمي إلى أسرة عريقة من أسر آل صكتو في شمال نيجيريا المنتمية إلى الأصول الصكتية، التي تدل المعلومات على مكانتها الاجتماعية المرموقة في أفريقيا فيما وراء الصحراء.
- مما لا شك فيه أن بيئة النشأة في مسقط رأسه صكتو المتميزة بنشاطها العلمية والثقافية قد أثرت في شخصيته وتكوينه العلمي، الذي ساهم في نبوغه العلمي.
- لاحظت الدراسة اتصال الوزير جنيد بعلماء ومشايخ أفريقيا، وأصدق مؤشر على ذلك تعلمه على يد الشيخ عبد القادر بن أبي بكر الذي ختم عليه القرآن الكريم عن ظهر قلب.
- تعد مؤلفات الوزير جنيد مصدراً مهماً لدارس تاريخ أفريقيا فيما وراء الصحراء.
- إلى جانب الإرهاصات التي ساهمت في تكوين الشخصية العلمية للوزير جنيد تلك الرحلات العلمية التي قام بها داخل بلده وخارجها لتحصيل العلم، والأنس بمجالس العلماء والأخذ عنهم العلوم في مختلف المشارب.

كل ذلك يؤكد حجم شخصية الوزير جنيد، ويشهد له بأنه من أبرز العلماء الذين أنجبتهم أفريقيا عامة ونيجيريا على وجه الخصوص في القرن العشرين.

كانت هذه أهم النتائج المتوصل إليها من خلال هذه الدراسة، وأخيراً لا يسعني إلا أن أترحم على الشيخ الجليل الوزير جنيد، وأدعو الله أن يجزيه على ما قدم من علم لتنوير العقول والأذهان، وأن يسكنه فسيح جناته.

والله ولي التوفيق

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الأنصاري، أبا محمد عبد الله بن يوسف بن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، د.ت.
- الأرواني، أحمد ابير، السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية، تحقيق الهادي المبروك الدالي، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 2001م.
- التكني، أحمد بلعراف، إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وأهل شنقيط، دراسة وتحقيق وتقديم الهادي المبروك الدالي، مطابع الوحدة العربية، الزاوية، 2000م.
- جروز، أحمد طاهر، تحليل أخطاء معلمي القرآن الفلانيين في خلاوى شمال الكمرون، رسالة ماجستير، معهد الخرطوم الدولي، 1998.
- أعمال الندوة العلمية تحت عنوان الاحتفاء بالشيخ عثمان بن فودي، الخرطوم "الايسسكو"، جامعة أفريقيا العالمية، 1995م.
- حاجي، خليفة، كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بيروت، 1941م.
- منصور، سامي، نيجيريا، عملاق أفريقيا التائه، دار المعارف، القاهرة ، 1967م.
- عراب، سليم، الاستعمار البريطاني في نيجيريا 1861 – 1960م، شبكة ضياء للمؤتمرات والدراسات.
- السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج1، د- ت.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الحاوي للفتاوى، مكتبة القدس، القاهرة، 1351، ج1.
- الصادق، علي محمد، الإجازات العلمية في أفريقيا، بحث غير منشور.
- يعقوب، علي، تعلم القراءة والكتابة باللغة الفلانية عن طريق الحرف العربي، بحث غير منشور.
- مجهول، تاريخ صكتو، مخطوط بمكتبة الهادي المبروك الدالي.
- التكنية، محمد المبارك، الأبعاد الفنية في أشعار جينيد بالعربية، رسالة ماجستير، 1980- 1981م، غير منشورة.
- الدالي، الهادي المبروك، قبائل الفلان، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2003.
- الدالي، الهادي المبروك، قبائل الهوسا، مطابع الوحدة العربية، الزاوية، 2005م.
- البصري، القاسم بن علي محمد الحريري، ت: 516هـ، مقامات الحريري، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، 1978،1398.
- البصري، القاسم بن علي محمد الحريري، ت: 516هـ، ملحة الإعراب، ط: دار السلام، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 1426هـ.
- الأخضري، أبي زيد بن عبدالرحمن بن محمد، ت: 953هـ، متن الأخضري في العبادات على مذهب الإمام مالك، ط: مطبعة محمد علي اصبيح وأولاده.
- المالكي، عبدالباري بن أحمد بن عبدالغني بن عتيق، أبو النجا العشماوي القاهري الأزهري، ت:10هـ، متن العشماوية في الفقه المالكي، ط: دار الضياء، الكويت، د،ت.
- القيرواني، أبو محمد عبد الله بن أبي زيد، ت: 386هـ، الرسالة الفقهية، مختصر في الفقه المالكي، ط: دار الغرب الاسلامي.
- الصنهاجي، أبو القاسم محمد بن محمد بن داود ، ت: 723هـ، متن الآجرومية في علم النحو، ط: دار الصميغي.

الحياة السياسية في فزان دولة أولاد محمد أنموذجاً (1550م-1813م)

Political Life In Fazan During Ruling Of State Of Mohamed's Sons As A Model 1550 -1813

■ **د. محمود عبد السلام الدالي**
رئيس قسم العلوم السياسية، جامعة بنغازي

■ **د. علي رمضان أبوبكر**
عضو هيئة تدريس، جامعة بنغازي

Abstract

This study aims at identifying basics of political life in Fazan between the periods from 1550 to 1813 through following up the importance of Fazan Province, and exposing its most prominent geographical dimensions and its natural, economic, and social components. The study, also, aims at shedding light on the political life in Fazan during the ruling period of Mohamed's Sons that extended from 1550 to 1813 and identifying the most prominent components that shaped the political life in Fazan during the mentioned periods. The study exposes the stages that the State of Mohamed's Sons passed from its origin till its end by Othman Empire. Accordingly, the whole Fazan Province became under the ruling of Othman Empire, which ruled Libya from 1711 to 1835, as a state of its states.

كلمات مفاتيحية:

الحياة السياسية- دولة أولاد محمد- فزان- محمد الفاسي- التكوينات الاجتماعية في فزان- عناصر الحياة السياسية في دولة أولاد محمد- الدولة العثمانية- القرمانليين- طبيعة نظام الحكم في دولة أولاد محمد.

مقدمة:

شهدت الحياة السياسية بفزان في الفترة الزمنية الممتدة مابين عامي 1550-1813م تحولات وإرهاصات عديدة، كان أبرزها ظهور دولة بإقليم فزان، عُرفت باسم دولة أولاد محمد نسبةً إلى مؤسسها محمد الفاسي القادم من مدينة فاس بالمغرب، وقد استقرت أسرة هذا الرجل بفزان في النصف الثاني من القرن السادس عشر ميلادي وأسست دولة محلية فيها، مركزها واحة مرزق، تحالفت هذه الدولة مع سلاطين الممالك الإسلامية في تشاد وشمال النيجر، وقد حكمت أسرة أولاد محمد فزان طيلة الفترة الزمنية أنفة الذكر، مما يعنى أنها خلقت جذور وقاعدة محلية لها ساعدتها على البقاء والاستمرار قرابة ثلاثة قرون. وقد كان الأساس الاقتصادي الذي قامت علية تلك الدولة، هو تجارة القوافل عبر الصحراء، وقد نظمت الدولة هذه التجارة وحمتها من خلال توفير مراكز للراحة، وأسواق للتبادل، وقضاة وحراس للحماية، وفض المنازعات، وكان إقليم فزان بحكم مواقعه الاستراتيجي يحوي أهم سوق لتجارة القوافل خصوصا أن أهم طريقين للتجارة مارا بأراضيه، هذه الأهمية الجغرافية لإقليم فزان، رغم أنها ساعدت على قيام دولة محلية واستمرارها لمدة ليست بالقليلة من خلال جمع الضرائب والريع المفروضة على الواحات، إلا أنها في الوقت نفسه أدت بسلاطين دولة أولاد محمد الدخول في صراع طويل ودامي مع الدولة العثمانية في طرابلس الغرب، على نحو ما سنرى لاحقا.

وعليه فإن محاولة دراسة الحياة السياسية في فزان في عهد دولة أولاد محمد، وتحليلها من كافة الجوانب تحليلا علميا ومنهجيا في شتى مراحله بتجرد وموضوعية، يقتضي بداية أن نوضح المنهجية التي يبنى تحليل الدراسة عليها، فنبدأ ببيان إشكالية الدراسة، وتساؤلاتها، والإشارة إلى أهميتها، والهدف الذي تسعى إليه، ونطاقها الزمني، والمنهج المتبع في الدراسة بالإضافة إلى تقسيم الدراسة ومحتوياتها لنصل في النهاية إلي ملخص الدراسة ونتائجها.

1- إشكالية الدراسة وتساؤلاتها:-

تنبع إشكالية هذه الدراسة من كون أن الحياة السياسية بفزان في مرحلة دولة أولاد محمد يكتنفها الغموض، وتفتقر إلي التحديد والوضوح، وذلك بسبب قلة الدراسات العلمية التي تناولت هذه المرحلة بصورة مستقلة ومباشرة، هذا وإذا أخذنا في الاعتبار وجهات النظر، واختلاف الآراء في بعض جزئيات الموضوع قيد الدراسة، لتفهمنا مدى عمق هذه المشكلة، لذلك جاءت هذه الدراسة لتميط اللثام عن ذلك الغموض وبالتالي تكشف الغطاء على جوانب كثيرة من تلك الحياة، وتدون مقاربات حولها لعل ذلك يلج باب لدراسات وأبحاث أكثر عمق وثراء، ومما سبق

تبرز مجموعة من التساؤلات تحاول هذه الدراسة تحليلهـــا والإجابة عنها، ولعل ابرز هذه الأسئلة الآتي:

1- كيف استطاعت أسرة أولاد محمد الوصول إلي سدة الحكم في فزان ؟
2- ما هي طبيعة نظام الحكم في دولة أولاد محمد القاسي في فزان؟
3- ما هو حدود حكم دولة أولاد محمد بإقليم فزان؟
4- ما هي مرتكزات نظام الحكم بدولة أولاد محمد؟
5- ما هي عناصر الحياة السياسية في فزان إبان عهد دولة أولاد محمد ؟
6- كيف استطاعت دولة أولاد محمد مقاومة الدولة العثمانية مدة ثلاثة قرون تقريبا ؟

2- أهمية الدراسة :-

تبرز أهمية هذه الدراسة في كونها تتطرق لموضوع الحياة السياسية في فترة مهمة من تاريخ فزان السياسي، وتظهر هذه الأهمية بشكل أكثر وضوحا عندما نعلم أن هذا الموضوع لم يحظ بالدراسة العلمية المعمقة فـــي الماضـــي، وأن اغلب المعلومات المتوفرة حوله متناثرة بين كتابات بن خلدون، والأنصاري، ومؤرخي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والراويات الشفوية. والذي يزيد من أهمية هذه الدراسة، هو كونها تلقي الضوء على إقليم فزان الذي كان يمثل نظرا لموقعه الاستراتيجي أهم سوق لتجارة القوافل في المنطقة.وقد كان لابد والحال كذلك، من أن يولى هذا الموضوع أهميه بالغة فتتم دراسته ومناقشته ومحاولـــة الوصول إلي فكـــرة واضحة حياله وهو ما حدا بالباحثين إلى اختياره موضوعا للدراسة.

3- أهداف الدراسة:-

تهدف هذه الدراسة إلي محاولة التعرف على طبيعة الحياة السياسية بإقليم فزان في عصر دولة أولاد محمد، وذلك من خلال التعرف على طبيعة نظام الحكم ومدى حدوده بفزان، بالإضافة إلي التعرف على أهم مرتكزاته ومقوماته. كما تهدف هذه الدراسة ضمن ماتهدف إلى أبراز العناصر المكونة لتلك الحياة مع بيان دور كل عنصر مـن هذه العناصر، وبالتالي فإن هذه الدراسة تطمح إلي تحليل الحياة السياسية بإقليم فزان من كافة جوانبها خلال الفترة مابين 1550-1813 م، على اعتبار أن هذه الفترة تمثل الوعاء الزمني الحقيقي لهذه الدراسة في عام 1550 م يمثل ظهور دولة أولاد محمد بفزان، بينما عام 1813 م يمثل نهاية حكم هذه الأسرة وسيطرة الدولة العثمانية على إقليم فزان بالكامل.

4- منهجية الدراسة:-

انسجاما مع طبيعة الموضوع وامتداد نطاقه الزمني، ومن منطلق القبول بحقيقة أن الدراسة العلمية الجادة هي التي تعتمد علي مقترب بحث أو أكثر يجري في ضوئه الاقتراب من الموضوع محل البحث ،لذلك فان هذه الدراسة قد اعتمدت بشكل أساسي على استخدام المقترب التاريخي، ويرجع استخدامه إلي لمعرفة الجذور التاريخية لأسرة أولاد محمد وعلاقاتها بإقليم فزان ،فضلا عن معرفة سير الحياة السياسية بدولة أولاد محمد ، خاصة معرفة المحاور أو العناصر المشاركة في هذه الحياة أي تلك التي دارت عليها الممارسة السياسية بشكل فعال، وذلك من خلال ما سيتم استعراضه تاريخيا من قضايا فزان الداخلية والخارجية، لذلك كان من المفيد استخدام المقترب التاريخي ،على اعتبار أن التاريخ أداة مهمة للتحليل السياسي بالإضافة إلى إن فهم بعض الجوانب المتعلقة بالموضوع قيد الدراسة تقتضي العودة قليلا إلي الوراء.

5- تقسيم الدراسة ومحتوياتها:-

من اجل إرساء منهجية علمية موضوعية متوازنة حيال هذا الموضوع فإن هذه الدراسة اقتضت تقسيمها إلي خمسة مباحث رئيسية وبيانها كالتالي:-

المبحث الأول :جغرافية فزان وأهميتها الإستراتيجية والتركيبة الاجتماعية بها

المبحث الثاني:جذور أولاد محمد وتأسيس دولتهم في فزان

المبحث الثالث: طبيعة نظام الحكم في فزان في عهد دولة أولاد محمد

المبحث الرابع : عناصر الحياة السياسة في فزان في فترة دولة أولاد محمد

المبحث الخامس: صراع دولة أولاد محمد مع الدولة العثمانية ونهايتها

المبحث الأول: جغرافية فزان وأهميتها الإستراتيجية والتركيبة الاجتماعية بها

1- جغرافية فزان وأهميتها الإستراتيجية:-

تحتل منطقة فزان أهمية جغرافية كبيرة وعمقا استراتيجيا متميزا ،منذ أقدم العصور وحتى وقتنا الحاضر، فهـــي تقـــع في الجزء الجنوبي الغربي من ليبيا الممتد إلى أواسط الصحراء الكبرى ويحدها من جهة الشمال إلي جبال السوداء والحمـــــاده، ومن الشمال الشرقي يعد الهاروج الأسود معلما طبيعيا يفصلها عن حوض سرت وأما حدودها من الجنوب فتمتد بين سرير تيبستي وجبل نقي في أقصى الشرق وبين جبل بن غنيمة غربا، في حين تمثـــل جبال

تومو وتبيستي الشاهقة في الجنوب، وتسيلي اجر الشامخة في الجنوب الغربي حدود طبيعية مميزة للمنطقة (الدناصوري ، 1967 ص31).

ويعد وادي الشاطئ من أهم الأودية في إقليم فزان، حيث يبلغ طولـــــه حوالي 200 كيلومتر، ويتراوح عرضـــــه مابين 10 كيلومترو20 كيلومتر،(شرف ، بدون تاريخ ص38). ويتكون الوادي من عدة تجمعات بشرية ،تمثل في مجملها جزء أساسي ومهم من سكان الإقليم، ولعل إبرازها ايديري ،تيمسان ،ونزريق، برقن، محروقة، العوينات، اجار، دويسة، الفرده، جنوبي المحروقـــة، براك، اشكده، دندب، قيره، شب، وعين الغزال وهي عيون مائية حولها عدد من النخيل (فوزي ، 1976 ص 48-49) ، ويمتد هذا الوادي من الغرب إلي الشرق ،ويبعـــد عن مرزق نحو 262 كيلومتر ،ولذا فإن أقدم مناطقـــــه التي شهدت الاستقرار والعمران البشري ،هي تلك التي توفرت فيها ينابيع المياه ،فقد كانت العيون المائية المصدر الرئيسي لري المزارع التي نشأت بتلك القرى والبلدات، مما جعلها مركزا هاما للنشاط الاقتصادي والعمراني(أندين ، 2007 ص34) ، إلى جانب وادي الشاطئ فإن وادي الآجال يعتبر هو الأخر من المناطق المهمة والتي تكون البناء الجغرافي للإقليم (فزان) ،فوادي الآجال يمتد إلي مايقارب 150 كيلومتر وينقسم وادي الآجال إلي قسمين رئيسين وهم الوادي الشرقـــــي والذي يضم عدة بلدات، لعل أهمها القراية، القصير، الرقيبه، التناحمة، بنت بيه، الزويه، القلعة الحمراء، بن حارث والأبيض، ويشمل القسم الثاني من الوادي والذي يعرف بالوادي الغربي قرى وبلدات الفجيج، تكركيبـــــا، قراقره، الخرائـــق، تويوه، الفهاخـــــه، ابريك، توش، جرمـــــه، الغريفه، القصيرات، الحيطـــــه، الديســـــه واوباري، وتشمل سبها والتي تقع في نهاية الطرف الشرقي لوادي الآجال، وتحوي على عـــدة مناطق، تضم القرضة، حجاره والجديـــد ،وتشمل منطقة البوانيس على ثلاثة مناطق رئيسية وتتمثل في الزيغن ،سمنو وتمنهنت ،ويمثـل وادي القطرون حلقـــة وصل تصل الإقليم بمناطق أفريقيا جنوب الصحراء كتشاد والنيجر. أما فيما يتعلق بطقس فزان فهو ليس مناسبا في العمـــــوم فخلال أشهر الصيف تشتد الحرارة وحين تهب رياح الجنوب لا يستطيع احتمالها حتى أهل البلد، وربما كان الشتاء أكثر اعتدالا ما لم تهب ريـــاح الجنوب التي تهب غالبا، في هذا الفصل من السنة وتدفع الجميع إلى إشعال النار هروبا من قسوة الرياح والبرودة (جعودة ، 1993 ص85) والتجارة في فزان مزدهرة إلي حد بعيد ولكنها تعتمد على ما يصنع خارجها ،وفي الفترة مابين اكتوبر وفبراير تصبح سوقا كبيرا ،وقبلة للقوافـــــل من القاهرة وبنغازي وطرابلس وغدا مس وتواتـــــه والسودان ،والقوافل الصغيرة مـــــن "تيبورشاد"والطوارق(جعودة، 1993 ص 87).ويختلف السكان في لون بشرتهم فنجد أن

من يسكنون الشمال يشبهون العرب إلي حد كبير في ملامحهم ولون بشرتهم إما من يقطنون الغرب فقد امتزجوا بسكان البلاد المجاورة ويشبهون التبو والطوارق ويمكن أن نصف أهل فزان الأصليين بأنهم قوم معتدلو القامة ،أشداء السواعد والأرجل ،بشرتهم بنية غامقة وشعرهم أسود وقصير ووجوههم عادية وأنوفهم مفلطحة تشبه أنوف الزنوج(جعودة ،1993 ص 91).

2- التركيبة الاجتماعية لإقليم فزان

تضم التركيبة الاجتماعية لإقليم فزان العديد من المكونات الاجتماعية التي استوطنت الإقليم ومن بينها قبائل أولاد سليمان وورفلة، الحساونة ،الزيادين ،الحطمان ،الزوية ،الفواخر ،أولاد بوسيف ،المشاشية ،الشعاوبة والأهالي الأصليين ويعرفون بالفزازنه وهم سمر البشره غالبا أو ملونون ومن بينهم عائلة الحضيري والتي كانت لها مكانه مميزه في المنطقة ،إلا انه يمكن إجمال أهم المكونات الاجتماعية في فزان في الأتي :

أ- المرابطون:-

وتشمل هذه الفئة أولاد قاسم وأولاد الرشيد والأشراف إلى جانب بعض الأسر ميسورة الحال والتي تشكـــل في مجملهـــا الشريحة العليا في المجتمع ولقد كان لها دورا بارزا في الحياة السياسية والاجتماعية في المنطقة كتولي القضاء والمناصب العليا والإدارة في الإقليم(الحسناوي ، 1995 ص25-26).

ب- البدو:-

ويشكل البدو نسبه مهمة من التركيبة الاجتماعية للإقليم ويظم هذا التصنيف عدد من القبائل القاطنة بالمنطقة ويأتي في مقدمتها المقارحه ،الحساونة، القواید، الحطمان، السهكة، إلى جانب بعض الأسر الصغيرة الأخرى وتعد قبيلتي المقارحه والحساونة من أكثر القبائل أهمية نظرا لما يملكونـــه من موارد اقتصاديـــــة تتمثل في قطعان الإبل والخيول لديهم (+).

ت- الطوارق:-

يمتد تواجد الطوارق في مساحات واسعة من أفريقيا وتحديدا في وسط صحراء قارة أفريقيا أو ما يعرف اصطلاحا بالصحراء الكبرى والتي تشمل موريتانيا ،الجزائر ،السودان، مالي ، ليبيا ويتميزون بوجود لغة خاصة بهم إلي جانب مقدرة بعضهم على التحدث بالغة العربية لغة القرآن الكريم والذي يدين به اغلبهم، ويتمركز جزء كبير منهم في وادي الآجال في الجنوب الليبي وتحديدا وادي (تارقا)والذي يعزو البعض من المؤرخين إلي إن تسميتهم بالطوارق تعود إليه ويمتهنون كأغلب سكان المنطقة حرفة الرعي والتجارة مابين بلدات الإقليم وقد تصل تجارتهم إلى الأقاليم المجاورة شمالا وجنوبا .

ث- التبو:-

ويعتبر التبو من أهم العناصر البشرية المكونة للتركيبة الاجتماعية للإقليم وينتخب زعيمهم من عشيرة "تومقرا"والتي غالبا ما يختار رجالات الإدارة من بين أفرادها لتميزهم بالحكمة وسعة الاطلاع والقدرة علـــــى الإدارة ويقيم معظمهم في قرى تجرهي والبخي والقطرون (الدناصوري ،1967 ص 174) ، وهي مجموعة قبائل بدوية ذات هوية عربية مختلطة تسكن الصحراء الكبرى خاصة منطقة جبال **تيبستي** وتمتهن تنميـــة المواشي وتتألف من قبيلتين أساسيتين هما (تومقرا- والدازا) ولكل منها لغة خاصة مع تجانس وتشابه في مخارج الحروف والمعاني ،وبهذا يعتبر التبو مكون مهم من مكونات التركيبة الاجتماعية لإقليم فزان (Nachigal)

ج- الإشراف:-

وتضم هذه الشريحة عدة قبائل ومكونات اجتماعية يعد من أبرزها الزيادين في تمسه والأشراف في زويلة ويعد هذا المكون الاجتماعي عنصرا أساسيا من عناصر التركيبة الاجتماعية للإقليم ، نظرا لما اشتهر به عناصر هذا المكون الاجتماعي من ورع وتماسك ديني مكنهم من أن يكون لهم حظوة بين سكان هذا الإقليم أهلتهم إلى إدارة المؤسسات الدينية كالمساجد ودور تحفيظ القرآن الكريم وزوايا الطرق الصوفية التي اشتهرت بها المنطقة في تلك الفترة(net)

المبحث الثاني : جذور أولاد محمد وتأسيس دولتهم في فزان

1) جذور مؤسس دولة أولاد محمد (محمد الفاسي)

بادئ ذي بدء يمكن القول أن محمد الفاسي عندما جاء إلي الجنوب نحو غدوة ومرزق وجرمة مركز الجرمان حكـــام فزان آنذاك، مكث عدة سنوات يعمل في التجارة بين فاس وفزان، ومن هنا اشتهر باسم محمد الفاسي نسبة إلي مسقط رأسه مدينة فاس بالمغرب.والواقع أن محمد الفاسي لم يؤسس حكمه في فزان استنادا على قبيلته، ولكن من خلال مزاولته لمهنة التجارة استطـــاع أن يتعرف على إقليم فزان ومكوناته الاجتماعية، وقد تمكن من خلال ممارسة هذه المهنة أن يكسب الكثير من الأموال وأن يكـون علاقات ودية مع كثير من رجال القبائل وشيوخها، وتأتي في مقدمة هذه القبائل قبيلة الطوارق الذي نال حظوتهم بسبب حسن الطالع فيه ومصاهرته لهم. وبالتالي يمكن القول أن أهمية محمد الفاسي تنبع من النظر إليه كونه ينتمي إلى نسل النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بالإضافة إلى حفظه للقران الكريم وعلمه ومكانته

المادية، كل هذه المصادر عززت مـــن مكانته الاجتماعية ودفعت به وأهلته نحو الحكم والسلطة، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو كيف استطـــاع محمد الفاســـي من اعتلاء سدة الحكم في فزان ؟ للإجابة على هذا السؤال نستطيع القول أن هناك أكثر من رواية شفوية تشرح أو توضح كيف تم ذلك، وعلى اعتبار أن هذه الراويات متقاربة ولا يوجد بينها اختلاف كبير لذلك سنكتفي بذكر الروايـــة الأرجح والتي مؤداها :أن الحالة السياسية التي كانت عليها فزان ،منذ أواخر القرن الخامس عشر ميلادي وحتى النصف الأول مـن القرن السادس عشر ميلادي شديدة الاضطراب، بسبب الحروب والصراع على السلطة والنفوذ بين قبيلتي الطوارق والجرمان إلى جانب ماكان يتمتع به محمد الفاسي من مكانه اجتماعيه عاليه في نفوس سكان وأهالي فزان، وفقا للمعطيات سالفة الذكر، وبسبب كل ماسبق ذكره جعلوه سكان فزان المقدم عليهم، فنازع بهم الجرمان حكام فزان في تلك الفترة، فأنتصر عليهـــم وبذلك استقر أمر الحكم له، والواقع أن هناك الكثير من الوثائق التي تؤكد صحة هذه الرواية ،حيث تشير هذه الوثائق إلى أن الجرمان هم الجهة الوحيدة في فزان التي كانت مناهضة لحكم دولـــــة أولاد محمد ،كما أن دخول الحملات العسكريـــة إلى فزان أثناء صراعها مع دولة أولاد محمد عادة يتم عن طريق الجرمان.

2) تأسيس دولة أولاد محمد في فزان.

على الرغم من أن إقليم فزان قد خضع لحكم أكثر من قبيلة واحدة قبل مجيئ دولـــــة أولاد محمد إليه ،إلا أن جميـــع هذه الحكومات لم تتجاوز مدن بعينها، أي بمعنى آخر لم تتوسع هذه الحكومات وتشمـــل حكم فزان بأسرها،إلا فـــي عهد دولة أولاد محمد، فعلى سبيل المثال لا الحصر فقد حكمت قبيلة بن الخطاب فزان في القرن الثاني عشر ميلادي، غير أن حكـــم هذه القبلية لم يتجاوز حدود مدينة زويله وماجاورها، وبعد سقوط حكم هذه القبيلة على يد (قراموش) دخلت فزان في فوضى عارمة إلى أن وقعت تحت حكم قبيلة الزواغة والذي كان حدود حكمها مشابه لحدود حكم قبيلة بنى الخطاب ،غير أن حكم هذه القبيلـة لـــم يلبث طويـــلا فسرعان ما سقط على يد قبيلة الجرمان، وقد حكمت قبيلة الجرمان فزان بكاملها إلا مدينة غات التي ظلت تحت حكم قبلية الطوارق، وباعتبار أن هاتين القبلتين كانتا يمثلان اكبر قوتين بفزان في تلك الحقبة دخلتا في صراع من اجل السيطرة والنفوذ، أسفر هذا الصراع على وقوع فزان بأسرها عام 1550م تحت حكم دولـــة أولاد محمد، حيث ضمت هذه الدولـــة كل ما كان يملكانه ويسيطران عليه قبيلتي الجرمان والطوارق، وأصبح فزان بذلك ولأول مره في تاريخه إقليما

موحـدا .غير أن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد هو:ماهي طبيعة نظام الحكم بفزان في عهد دولة أولاد محمد ،هذا ما سوف نحاول الإجابة عنـــه في المبحث القادم .

المبحث الثالث : طبيعة نظام الحكم بفزان في عهد دولة أولاد محمد:-

يوصف نظام الحكم في دولة أولاد محمد بفزان في الفترة قيد الدراسة ،بأنه كان حكما وراثيا، تعاقبت عليه سلاطين الأسرة الفاسية ،فضلا عن أنه كان حكما مطلقا ،فإرادة السلطان نافذة باعتباره إمام المسلمين وخليفة النبي (صلى الله عليه وسلم) والذي زاد من مكانة السلطان ونفوذه في نفوس سكان فزان هو كونه سليل أسرة شريفة يرث عنها البركه ،والقول بأن شريف البركه لا يخطى كان من أقوى العوامل المؤثرة في تاريخ فزان آنذاك، وقـوة السلطان الروحية حق له وحده لا يشاركه فيها احـــد، و لا يمكن أن يعهد بها إلى أي شخص سوى خليفته الذي يجب أن يكون شريفا أيضا (لأند ، 1963 ص 38-39)وسبيله إلي ممارسة سلطتـــه الزمنية هو المخزن[56]أي الإدارة الشريفية (لأند ، 38-39)،وإذا كانت سلطة السلطان الروحيه، غير قابلة للمناقشة، فإن سلطته الزمنية لم تكن كذلك دائما ،حيث كانت بعض القبائل في فزان تعترف للسلطان الفاسي بمكانته الدينية، ولكنهـا ترفض تأدية الضرائب التـــي يفرضها عليها، مما كان يدفعه ذلك إلي الضغط على تلك القبائل ، وأحيانا إلي محاربتها. وفي إطار العلاقة بين القبائل الموالية للسلطان، وتلك المتمردة عليه، كان يجري الحديث على بلاد المخزن والسيبه (لأند ، 39). فبلاد المخزن تضم القبائل الموالية للسلطان ،فهي التي تزوده بالحاميات في المدن، ومنها يتشكل الجيش ومنها تتشكل الإدارة الحكومية أيضا، لذلك كانت تكافأ بالإقطاعيات والإعفاء من الضرائب، فضـــلا عن وصول زعمائهـــا إلى أعلى المناصب في الدولة. وإدارة الدولة المخزنيه كانت تتكون من السلطان رأس الإدارة وهو الذي يتولى تصريف كافة أمور الدولـــــة من استقبال الزوار الأجانب وتقديم الالتماسات المحلية للمطالبة بالنصرة والعدالة، ومنـــــه كانت تصدر الأوامر والمراسيم السلطانية ، وكان موظفوا المخزن ومدراء الفروع الإدارية يتألف اغلبهم من أسرة السلطان وخدمـــه وإتباعه المقربين إليه ، كما تتكون من بعض العناصر التي تنتمي إلى الأسرة الارستقراطية أي عريقة النسب وذات النفوذ والمكانة الاجتماعية فكان في مقدمة أولئك الرجال الفقهاء ولائمة والمشايخ علاوة على الإشراف والمرابطين ، وقد تولـــى عدد منهـــم بعض المناصب الهامة في الدولة ، ومنها على سبيل المثال ، منصب القضاء، ومنصب إدارة جمع الضرائب ،والمكوس وغيرهـــا من المناصب الأخرى، والواقع ، لا يرتبط

[56]مصطلح المخزن ،يعني الحكومة ،نقله سلاطين أولاد محمد عن دولة الحفصيين في تونس عام 1828م

بلاد المخزن بحدود ثابتة، إذ أن الحدود تتعلق بمواقف القبائل من كل سلطان جديد، أي أن هذه البلاد تتسع كثيرا في ظل حكم السلاطين الأقوياء، وتنكمش بلاد السيبه (واتريوري ، 1982 ص39) والعكس كان يحدث في ظل السلاطين الضعفـــاء (واتريوري، 1982 ص24).إلى جانب المخزن وجدت مجموعة من المجالس والجماعات القبلية والقروية التي كانت تتمتع بقدر من الحكم الذاتـــي ،من خلال تقرير الشؤون المحلية ،وكان الرجال البالغين في القبيلة والقرية أعضاء في المجالس الدنيـــا التي تختار مجلســـا أعلى يترأسه احد أعضائه لمدة عام ومهمته متابعة تنفيذ قرارات المخزن (لأند ، .. ص22) وكان هناك رؤساء الفرق العسكرية الذين كان جلهم من البدو ينحدرون في الأصل من قبائل بني سليـــم وبني هلال هؤلاء قدمـــوا إلي بلاد المغرب في القرن الحـــادي عشر، واستوطن بعضهم بوسط فزان وفي حدودها الشمالية Elhesnawi , 1990) ص 44-45) والواقع كان سلاطين دولـة أولاد محمد فـــي حكمهـــم وإدارتهم متأثرين بالنظم السياسية والإدارية والقضائية السائدة في الدول الإسلامية خاصة تلك التي كانت سائدة في الشمال الإفريقي، كالدولة الحفصية في تونس بين عامي (1228-1574 ميلادي)، وبني زياد في الجزائر(1225-1554ميلادي)، والعلـــويين في المغرب بين عامي (1559-1912ميلادي)كما تأثر سلاطين دولة أولاد محمد بالنظم الإدارية التي كانت قائمة في الممالك الإفريقية المجاورة لهم مثل كانم وبرنو. وهذا قد ارتكز نظام الحكم بدولـــة أولاد محمد بفزان فـــي تسييره للحياة السياسية على عدة عناصر مهمة تدار من خلالها العمليات السياسية ويمكن النظر إلي كل عنصر من تلك العناصر حسب مشاركته وتأثيره من خلال عدة مستويات وهذا مأسوف نحاول أن نتعرض له في المبحث القادم.

المبحث الرابع :عناصر الحياة السياسية في فزان بدولة أولاد محمد

بالرغم من عدم وجود معلومات كافية بين أيدينا لتحليل عناصر الحياة السياسية بفزان إبان حكم دولة أولاد محمد ، إلا أنه يمكن تقديم عرض مبسط لتلك العناصر، وذلك أعطاء فكرة أكثر وضوح عن سير الحياة السياسية في تلك الحقبة ، إذ يمكن ملاحظة ثلاثة مستويات تتفاعل من خلالها قوى عديدة. في المستوى الأول يقف السلطان وفى المستوى الثاني أسرة أولاد محمد وفي المستوى الثالث توجـــد قادة القوات المحليـة ورجال المخزن وشيوخ القبائل ويشكل هؤلاء النخبة السياسية بفزان في تلك الفترة ، والواقع ،أن معرفة مصدر قـوة كل عنصر من هذه العناصر وعلاقته بغيره من العناصر الأخرى مسألة ضرورية لفهم طبيعة الحياة السياسية بإقليم فزان في الفترة الزمنية قيد الدراسة.

1) السلطان:-

يعتبر السلطان في دولة أولاد محمد أهم عنصر في الحياة السياسيـــة، فهو المحور الأساسي الذي ترتبط به كافة العناصر الأخرى،ويستمد نفوذه من مصادر عديدة أهمها العامل الديني حيث يرجع جانب كبير من مكانته إلي كونه زعيما روحيا، أي أنه يحظى بتقدير اغلب سكان فزان، وهذا ليس لأنه سلطان فحسب ، بل لأنه–أيضا-إمام المسلميـن حيث ينظر إليه في فزان كخليفة، فهو يحمل لقب أمير المؤمنين (رووالأندو،....) ،وهذه المكانة الدينية تلزم الجميع بطاعته ،وتجعـل الولاء الديني له بعيد عن أي جذل أو مناقشة .حتى تلك القبائل المعارضة له والتي كانت أحيانا تتمرد عليه برفض دفــع الضرائب اعترفت بزعامته ،باعتبــاره حامي حمى الدين (واتريوري ، 1982 ص137)لذلك كان السلطان في دولـــة أولاد محمد يجمع بين يديه كافـــة السلطات ،فهو الذي ينظم العمل الحكومي، ويرتبط به رأسا أمراء المؤسسات الإدارية، وهو الذي يعين الوزراء ويقيلهـــم وهم المسولين أمامه -أي الوزراء- على إعمالهم، وباسمه وإرادته تصدر كافة اللوائح والنظم ،كما أنه يعتبر المرجـع القضائي الأول والأخير وهو القائد الأعلى للقوات المسلحة في الدولة .لذلك كان السلطان في دولة أولاد محمد يسعى دائما إلي مطابقة سلطته الزمنية مع سلطته الروحية أي بمعنى آخر أن سلطته المادية تصل إلي حدود سلطته الدينية (بنجلون ، 1977 ص139)والذي زاد من تأثير العامل الديني هو أن السلطان يعود بنسبه على ما تم ذكره إلى نسل النبي (صلى الله عليه وسلم) والواقع لقد كان لهذا العامل تأثير بالغ في نفوس أغلب سكان فزان.

2) أسرة أولاد محمد:-

تعد هذه الأسرة هي المؤسسة لدولة أولاد محمد بفزان ، وهي من أكثر الأسر تجانسا وارتبطا ،ويشغل زعماؤهـا المناصب السياسية القيادية في فزان ،فإذا تركنا منصبي السلطان وولي العهد ،فأننا نجد أن مناصب هامه في الدولة هي بيد شخصيات من أبناء هذه الأسرة، ولهذا يكون لهذه الشخصيات وغيرها ممن هم في مستواها في الأهمية والزعامـــة دور في المشاركـــة في الحياة السياسية. والواقع فقد استطاعت هذه الأسرة أن تحتفظ لنفسها منذ أن تولت الحكم في فزان باحترام وتقديـــر الأسر والقبائل الأخرى داخل المجتمع الفزاني، وقد وسعت هذه الأسرة من دائرة المشاركة السياسية، بحيث أصبحت نواة للفئة الحاكمـــة التـي قالوا عنها هي من أكثر الفئات تجانسا وترابطا ووعيا ،فالأفراد المكونين لهذه الأسرة تربطهم رابطة الدم، وينحدرون من أصول واحده، فإلى جانب العامل التاريخي، حيث استطاعت على مدى تاريخها الطويل أن تقدم سلاطين للدولة المحلية فزان، هناك العامل الديني حيث تعتبر أسرة

أولاد محمد أسرة شريفة يعود نسبها كما أسلفنا إلى نسب النبي (صلي الله عليه وسلم)، وهناك أيضا العامل السياسي حيث يتم اختيار السلطان وولي العهد من بين أفرادها .بالإضافة إلى أن جميـع أفرادها يتمتعون بحكم التقاليد العربية بمكانة اجتماعية عاليه في نفوس اغلب سكان فزان والمناطق المجاورة.

3) يريمة :-

تعنى هذه الكلمة حاكم الشمال ،وذلك حسب لغة أهل كانم وبرنو (محمد ، ص19..) ،وقد استعار أولاد محمد هـــــذه التسمية وأطلقوها في بداية الأمر على الأفراد الذين يشغلون منصب القائد العام لقوات السلطان، أو الذين يقومون بمهام الحكم عقب وفـــــاة السلطان ،والواقع تعتبر اليريمة الشخصية الثانية في فزان بعد السلطان، فهو عادة يتولى مهام ولي العهد، وكان يريمة بحكم صلاحياته الواسعة يشارك في الحياة السياسية بفزان ،حيث أنه يتدخل لحماية رعاياه من ظلم السلطات المحلية في العمـــالات (محمد ،ص37)، بفرض الغرامات على المخطئين وهو مايعرف في ذلك الوقت بضريبة الخسارة ،الخطيئة ،ويقوم يريمة –أيضا- بمنح وجبـات المياه التي كانت تعرف باسم الغرر لاستخدامها في ري المزروعات من خلال القنوات المتفرعة من العيون المائية بوادي الشاطئ (محمد ، .... ص 38).

يتضح مما سبق أن يريمة إلى جانب أنه يشغل منصب قائد عام قوات السلطان ،فقد كان يشارك في الحياة السياسية بمهام وصلاحيات لاتقل أهمية عن صلاحيات السلطان خصوصا في عدم وجوده لسبب أو لآخر.

4) المقدم:-

كان لكل عماله من عملات فزان موظف، يعرف باسم المقدم، يعتبر هذا العنصر من العناصر المهمة في دولة أولاد محمد، إذ يعتمد عليه السلطان اعتمادا كبيرا في قيادة القوات المحلية الخاصة بحفظ الأمن والنظـــــام، وتنفيذ عمليـــة جمع الضرائب والرسوم من سكان المدن والقرى التابعة لمنطقته الإدارية (محمد ، ... ص40)، مما يبرز حجم الدور الكبير الذي كان يقوم به المقدم في الحياة السياسية بمنطقة فزان، وذلك لتنفيذ أوامر السلطان والقائد.

5) القائد:-

يعتبر القائد من أهم رجال المخزن،نظرا لما يقوم به من مهام أمنية وسياسيـــة، حيث كان يتم تعيينه من قبل السلطان ، وينوب عنه في حكم احد العمالات أي الوحدات الإدارية وهو بذلك يشارك في الحياة السياسية من خلال تولية السلطة الإدارية، إلى جانب قيامه بتنفيذ الإحكام القضائية التي يصدرها السلطان، أو القضاة ،وذلك في النطاق الجغرافي لمنطقته الإدارية

((Elhesnawi، .... ص 170-171))ويعتبر القائد نائبا عن السلطان في حكم منطقته الإدارية، مما يعنى أنه يتولى منصبا تنفيذيا غاية في الأهمية، إذ أنه يشرف إداريا على مجموعة من القرى والبلدات والنجـــوع التي يترأسها شيوخ القبائل ،وهذا يعني أنه يلعب دورا أساسيا في الحياة السياسية.خاصة عندما نعلم أن القائد تربطه علاقة وثيقة بشيوخ القبائل في مناطقهم الإدارية.

6) الشيخ :-

في الواقع أن شيوخ القبائل لايشكلون جهازا قانونيا في دولة أولاد محمد ،غير أنهم يتمتعـــــون بنفوذ بارز في العديد من المجالات ،خاصة في المجالين الديني والسياسي ،ففي المجال الديني يقدمون فتاوى لها مكانه هامه لدى سلاطين دولــة أولاد محمد ،أما في المجال السياسي يبرز دورهم في جوانب عديدة أهمها مبايعة السلطان وتجديد البيعــة والولاء له عند اعتلاءه سدة الحكم، كما يشاركون في ترسيخ سلطة الدولـــة وفرض هيبتهـــا ،وحفظ الأمن وجبايـــة الضرائب في القرى والأرياف البعيدة عن مراكز العمران، فقد اعتمدت عليهم إدارة المخزن كثيرا في هذا المضمار. والواقع ،لم تكن مسؤولية شيخ القبيلة تقتصر على تولى مهام الإدارة اليومية لشؤون قبيلتـــه فحسب ، بل كان مسئولاً أيضا بالمحافظة على الأمن والنظام بين أهل القرية. وعلى الرغم من اعتماد إدارة المخزن كثيرا على القيادات المحلية من شيوخ القبائل ،لاسيما الذين كانوا يتمتعون بنفوذ سياسي وتأثير اجتماعي كبير في تصريف الشؤون المحليـة في القرى ، إلا أن المخزن كان حريصاً في الوقت ذاته في المحافظة على التوازن السياسي بين تلك القيادات، وذلك للحيلولة دون ظهور قيادة محلية قوية تضر بمصالح الدولة، فضلا عن أن تلك القيادات كانت تمثل حلقة وصل بين السلطة الحاكمة وعامة المواطنين (الحسناوي ، 19... ص42).

وفي نهاية الحديث عن عناصر الحياة السياسية في دولة أولاد محمد بفزان يمكن القول أن الهيئة الحاكمة في دولة أولاد محمد، فيما إن تمكنت من بسط سيطرتها على إقليم فزان وتنظيم الإدارة فيه، حتى وجدت نفسها في مواجهة قوة جديدة تمثلت في الدولة العثمانية الذي افلح أسطولها البحري عام 1551م في نزع طرابلس من فرسان القديس يوحنا حلفاء اسبانيا الذين احتلوها في عام 1510م وجعلها ولاية عثمانية عرفت باسم ولاية طرابلس الغرب ،ونظرا لأهمية فزان كسوق لتجارة القوافل فان الحكام العثماني بولاية طرابلس لم ينتظروا طويلا حتى دخلوا في صراع استمر فترة طويلة مع سلاطين دولة أولاد محمد إلى أن بدأ يوسف باشا في التركيز على سياسة التوغل في الداخل والسيطرة على تجارة القوافل للتعويض عن النقص في الإتاوات

البحرية ، لذلك أرسل جيشه لاحتلال فزان الذي جهزه بحملة كبيرة هزمت وأنهت حكم سلاطين أولاد محمد في فزان عام 1812م.

شكل الحياة السياسية في فزان في عهد دولة أولاد محمد

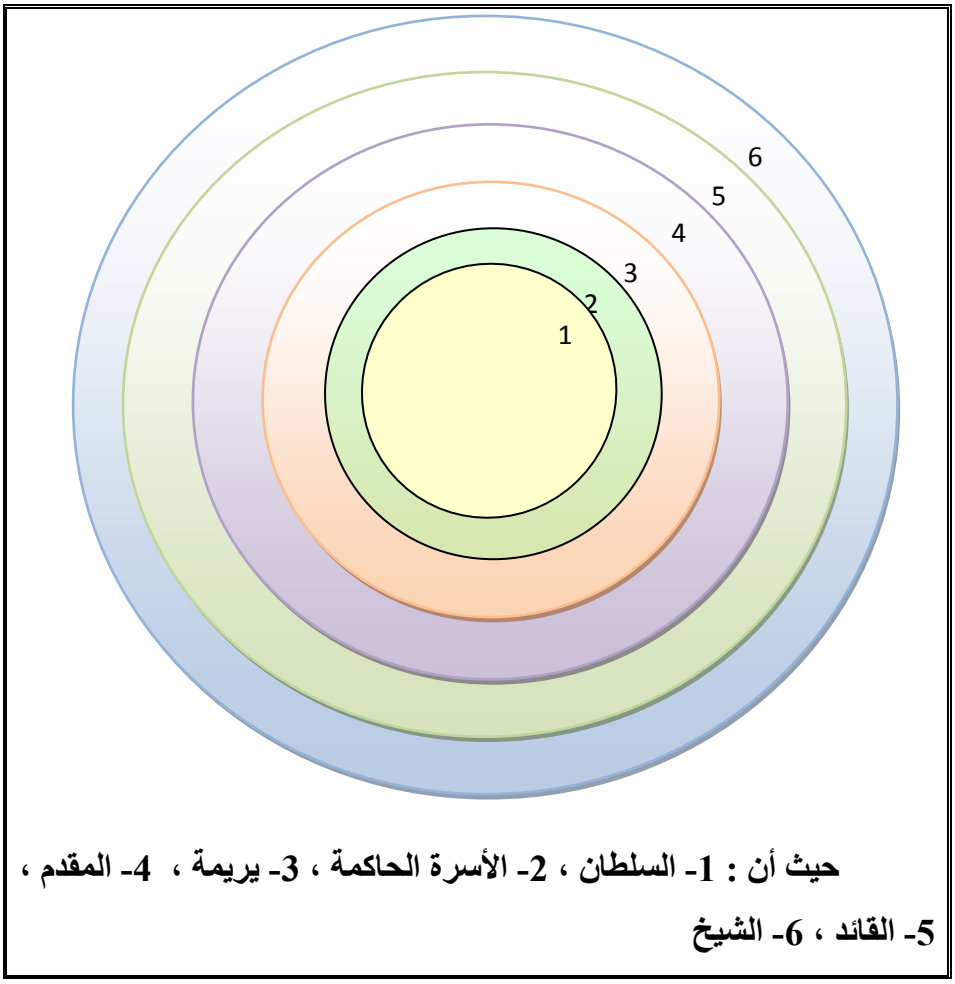

حيث أن : 1- السلطان ، 2- الأسرة الحاكمة ، 3- يريمة ، 4- المقدم ، 5- القائد ، 6- الشيخ

المبحث الخامس : صراع دولة أولاد محمد مع الدولة العثمانية ونهايتها

ظهرت دولة أولاد محمد كما هو معروف إلى حيز الوجود في إقليم فزان عام 1550م أي قبل مجيء الدولة العثمانية إلى طرابلس، ويقول احد الباحثين أن دولة أولاد محمد قد امتدت إلي وسط تشاد ووسط النيجر واستمرت قرابة ثلاثة عقود في حكم فزان بمنأى عن الدولة العثمانية (ابن غلبون، ... 111-113) ،والواقع حتى بعد مجيء الدولة العثمانية إلى إقليم طرابلس عام 1551م وفرض سيطرتها على هذا الإقليم، فإن اتصالها بمناطق الدواخل عامة وإقليم فزان خاصة كان غير متيسر ومحفوفا بالمخاطر، وبالتالي كان نفوذ الدولة العثمانية على المناطق الصحراوية وإقليم فزان ضعيفا مالم يكن غائبا ،مما يعني أنه كان هناك استقلال سياسي بالمناطق

الصحراوية في البلاد عن جسم الدولة العثمانية، وكذلك عن الإدارة المركزية في طرابلس الغرب ويرجع ضعف نفوذ الدولة العثمانية على مناطق الدواخل عموما وفزان خصوصا إلي عدة اعتبارات لعل إبرازها:-

1- كبر مساحة البلاد وعجز الدولة العثمانية عن إعداد جيش يتطلب نفقات طائلة لسيطرة على الدواخل الصحراوية في البلاد .
2- أن اغلب القبائل بالدواخل ،نظرا لطبيعة المناطق كانت تحمل السلاح دفاعا على ممتلكاتها من القطعان والمراعي، وبذلك استطاعت هذه القبائل أن تقلل من نفوذ الدولة العثمانية.
3- ظهور دولة أولاد محمد بإقليم فزان ،حيث استطاعت هذه الدولة أن تقف في وجه الحكم العثماني آنذاك وتمنعه من تحقيق سيطرة كاملة وحاسمة على فزان قرابة ثلاثة قرون على نحو مانرى لاحقا.

ولهذه الأسباب وغيرها اضطرت الدولة العثمانية المركزية في طرابلس الغرب ، أن تدخل في علاقات ودية مع قبائل المناطق الصحراوية، وأن تتعامل مع زعماء التحالفات القبلية وسلاطين دولة أولاد محمد على أساس المشاركة في الحكم (أحميدة ، 1993ص 34) ، غير أن هذه العلاقة الودية لم تستمر طويلا، فسرعان ما تحولت إلي صراع وحروب ضارية ، خاصة ما بين الدولة العثمانية في طرابلس ودولة أولاد محمد في فزان حول جمع الضرائب والمكوس وإيرادات التجارة عبر الصحراء (أحميدة ، 1993ص 34).

فلما كان للعثمانيين الرغبة في التوسع على حساب المنطقة التي تمتد جنوب فزان، ولما كان الهاجس المسيطر علي العثمانيين هو اتخاذ فزان قاعدة للانطلاق نحو أسواق بلاد السودان الأوسط والغربي، وبالتالي التحكم والسيطرة على طريق القوافل المؤدية إلي تلك البقاع ،فإن الدولة العثمانية أخذت تعمل جاهدة على تجهيز جيوشها وحملاتها العسكرية للاستيلاء على فزان، والواقع كانت نتائج هذه الحملات في مجملها سلبية وذلك بسبب أن سلاطين دولة أولاد محمد يتبعون سياسة الكر والفر ، بمعنى عندما ينهزمون أمام الحملات العسكرية العثمانية يفرون إلي بلاد الهوسا بالسودان التي تربطهم بأهلها علاقات قوية، وعندما يعدون العدة ويتلقون الدعم والمساندة من أهل تلك البلاد وينظمون صفوفهم يعودون إلى فزان لانتزاع سلطتهم، بتأييد من أهل فزان ،كما حدث حينما ثار أهل فزان ضد الحامية العثمانية وقتلوا جميع جنودها ومهدوا العودة إلي السلطان الناصر بن محمد الفاسي (Gustar .. ص 87). والجدير بالذكر في هذا الصدد أن حكام طرابلس في العهد العثماني الأولى كانوا على ما يبدو غير مهتمين بالقضاء نهائيا

على دولة أولاد محمد بفزان على اعتبار أن الخلافات الداخلية بين أفراد أسرة أولاد محمد كفيلة بالقضاء على زعزعة أركان نفوذهم ، لذلك اكتفى العثمانيون بإرسال حملات عسكرية لإلزام سلاطين دولة أولاد محمد بدفع الإتاوة السنوية إليخزينة الحكومة المركزية ، قدرها أربعة ألاف مثقال من الذهب ، والتي يمكن دفع نصفها بالتبر(الذهب الخام) والنصف الأخر بالرقيق (أحميدة، 1993ص 34).

وتعتبر الفترة الممتدة مابين عامي 1551م-1711م فترة صراع وحروب دامية من اجل السيطرة والنفوذ على فزان بين الولاة العثمانيين في طرابلس وبين سلاطين دولة أولاد محمد(أحميدة ، 1993ص38).

فالدولة العثمانية تريد الحصول على الفائض اللازم لإعادة الإنتاج للصرف على الفئة الحاكمة ،وقصورها ،وإدارتها، وشرطتها، أما دولة أولاد محمد تريد أن تحافظ على امتيازاتها واستقلالها في فزان ، وتستوجب الإشارة هنا إلي أن المعارك والحروب التي دارت بين الطرفين طيلة الفترة أنفة الذكر ، كان يغلب عليها طابع السجال إي لم يتحقق النصر الحاسم لأي طرف منهما.

وقد دارت العديد من المعارك بين الدولتين العثمانية ودولة أولاد محمد بفزان، وكان من أهم هذه المعارك هي ، معركة قصر الحمر عام 1577م، ومعركة كثير عام (1596) ومعركة حمير عام (1627) ومعركة أدليم عام (1671) وكذلك معركة مرزق عام (1733) وسنحاول في هذه الدراسة التحدث عن هذه المعارك بإيجاز

أولا معركة القصر الحمر عام 1577م:-

تعتبر هذه المعركة أول صدام مسلح بين الدولتين وقد جاءت هذه المعركة بعد أن أدرك العثمانيين أهمية السيطرة على فزان، الأمر الذي يفتح أمامهم الطرق إلي وسط إفريقيا، وقد تمكن العثمانيين من بسط سيطرتهم على أجزاء كبيرة من فزان بعد هزيمة دولة أولاد محمد بقيادة السلطان الناصر بن محمد الفاسي الذي لاذ بالفرار إلي بلاد الهوسا بالسودان.

وتجدر الإشارة في هذا السياق ، إلي أن حكام طرابلس في العهد العثماني الأول ،كانوا يفرضون سيادة مؤقتة على فزان بالتعاون مع أولاد علون والجرمان وهما القوتين المناوئتين لدولة أولاد محمد ،وقد كان الولاة العثمانيون في طرابلس في ظل غياب سلطة أولاد محمد بفزان يكلفون شخصا من إحدى هاتين القوتين ليكون عاملا لهم في فزان، وكان من أشهر هؤلاء الأشخاص الذي عادة مايتم تكليفه عاملا على فزان هو امحمد بن هويدي الجرماني،غير أن السلطان الناصر محمد الفاسي لم يلبث طويلا حتى تمكن من العودة إلي فزان وانتزاعها من تحت

سيطرة النفوذ العثماني عام 1588م إلا أن المرض لم يمهله طويلا فتوفى حوالي سنة (1596) وخلفه ابنه المنصور بالناصر.

ثانيا : معركة صحراء كنير 1008هجري 1596 ميلادي:-

جاءت هذه المعركة بعد أن خلف السلطان منصور والده السلطان الناصر بن محمد الفاسي الحكم في فزان ، امتنع الأول عن دفع الريع السنوي للإدارة العثمانية في طرابلس ،فأرسل الوالي سليمان داي جيشا لغزو فزان، ويقال أن السلطان منصور بن الناصر خرج يقود في جيشه بنفسه والتقى الجيشان في صحراء (كثير) واقتتلا قتال عنيفا ودراميا ، ظهرت فيه شهامة السلطان منصور وشجاعته النادرة ،كما اظهر أهل فزان شجاعة منقطعة النظير للدفاع عن أرضهم وممتلكاتهم، غير أن المستعمرين العثمانيين تمكنوا من إحراز النصر، حيث جرح السلطان منصور جروحا عميقة لم يبق طويلا حتى فارق الحياة على أثرها .

ثالثا: معركة قرية حميرة 1036 هجري -1684 ميلادي

وجه العثمانيون حملة عسكرية كبيرة إلى فزان للسيطرة عليها، ولما سمع السلطان الطاهر الفاسي بقدوم هذه الحملة ، ترك فزان ولجأ فارا إلى السودان، فقام العثمانيين بوضع أحمد بن هويدي الجرماني عاملا على فزان مدعوما بمجموعة من الجنود التابعين للدولة العثمانية، غير أن بعض الكتابات تشير إلى أن أهل فزان قاموا بمراسلة السلطان محمد بن جهيم خلسة ، الذي كان مقيم في بلاد كاشنة ، فتوجه إليهم ومن معه في الحال وعندما سمع العامل العثماني بذلك (***)من معه والتقى الجيشان بقرية حميرة القريبة من قرية أم الأرانب وأنتصر، وقد حسمت المعركة بانتصار السلطان محمد بن جهيم على العامل العثماني وجنوده غير أن الأخير تحصل على إمدادات ومساندة قوية من قبل الباشا العثماني، مما جعل السلطان محمد بن جهيم يدخل في معركة ضارية ودامية مع الدولة العثمانية، وطالت الحرب بين الطرفين واستمرت سجالا، ولم يتوقف القتال إلا بعد أن تدخل العلماء والإشراف والمرابطون من رجال الدين وطلبوا هدنة بين الطرفين تمهيدا لعقد صلح نهائي وهذا ما حدث فعلا وأبرمت اتفاقية صلح بين الطرفين.

وبناء على هذه الاتفاقية تدفع دولة أولاد محمد جزية للدولة العثمانية مكونة من 4000 مثقال ذهب، نصفها يدفع ذهبا والنصف الأخر يدفع رقيقا ،الرقيق الذكر يكلف 25 مثقالا بينما الأمه يدفع مقابلها 25 مثقالا، كما يتحمل سلطان دولة أولاد محمد تكاليف إرسال الرقيق والذهب إلي سوكنه في وسط ليبيا ويتكلف بمصاريف الرحلة، مابعد سوكنه وحتى طرابلس الوالي العثماني في طرابلس (ابن غلبون،ب،ت،ص 153)وبناء على هذا الاتفاق اعترفت الدولة العثمانية بسلطة أولاد محمد على فزان تحت الحماية العثمانية ومنح لقب الشيخ لمحمد بن جهيم

سلطان أولاد محمد ، وبالتالي أصبح السلطان يحمل ختمين ، ختم يحمل اسم السلطان يستخدمه في مكاتباته الداخلية العادية ، وختم يحمل اسم الشيخ يستخدمه في مكاتباته للباشا العثماني ([57])

رابعا : معركة قرية أدليم عام 1083 هجري-1671 ميلادي :- (نفس المرجع السابق)

وقعت هذه المعركة بين دولة أولاد محمد في عهد السلطان نجيب بن محمد بن جهيم وبين الإدارة العثمانية المركزية في طرابلس.حيث قامت الأخيرة بإرسال حملة عسكرية قوية ، بقيادة مراد بك للسيطرة على فزان، غير أن السلطان نجيب تصدى بقوة لهذه الحملة، والتقى الفريقان بقرية صغيره بالقرب من أدليم، وقامت معركة بينهما حامية الوطيس ،استبسل فيها أهل فزان وعلى الرغم من أن هذه المعركة قد لقي فيها السلطان نجيب حتفه وخلفه أخوه محمد الناصر بن جهيم وهو الابن الثالث للسلطان محمد بن جهيم ، غير أن النصر لم يحسم فيها لأي من الطرفين، إلا بعد أن قامت الإدارة العثمانية في طرابلس بإرسال تعزيز بجيش أخر، بقيادة محمد المكني الأول. وقد تمكن الجيش العثماني من احتلال فزان واسر السلطان محمد الناصر ، وبعد أن تم فك أسره عاد إلى فزان واستقبله الأهالي بحفاوة بالغه واستطاع أن يكون منهم جيشا ، وأن يسيطر على فزان بكاملها ، واستمر في حكمها حتى توفى عام 1122هجري 1710 ميلادي تاركا العرش لأبنه أحمد.

خامسا : معركة مرزق عام (1733)

بداية يمكن القول أنه حتى بعد مجيء القره مانليين لحكم طرابلس الغرب عام 1711م ظلت معاهدة عام 1626م والمشار إليها أنفا سارية بكافة شروطها في تنظيم العلاقة بين دولة أولاد محمد والدولة القره مانلية في طرابلس. ولكن عندما تولى السلطان أحمد الناصر الحكم في فزان ما بين عامي 1710 م -1766 م ، استغل الخلافات والثورات الداخلية التي واجهة الدولة العثمانية القره مانلية، فامتنع عام 1733م على دفع الريع السنوي إلى الإدارة العثمانية في طرابلس، الأمر الذي جعل أحمد القرمانلي يقوم بإرسال حملة عسكرية قوية تحت قيادة ابنه محمد بك، فضربت هذه الحملة حصارا شديدا على فزان، وتحديدا على العاصمة مرزق لمدة ستة أشهر، الأمر الذي أدى بالسلطان أحمد الناصر إلى تسليم نفسه ،حيث تم أسره وإرساله إلي طرابلس برفقة ابنه ، وتشير بعض الكتابات في هذا الشأن إلى أن السلطان أحمد الناصر، فك أسره قبل أن يتم استرقاقه، وبعد أن قام أحمد القره مانلي بإعادة السلطان أحمد الناصر إلي عرشه حاكما لفزان، بدأت مرحله جديدة من العلاقات بين القره مانليين وسلاطين دولة أولاد محمد ، واستمرت هذه العلاقات أكثر من نصف قرن، والذي جعل هذه العلاقات تستمر هو :التزام

[57]للمزيد من التفاصيل أنظر الى تقرير الرحالة الالماني الشهير فريدريك هورثمان بين عامين 1797– 1798م

سلاطين دولة أولاد محمد بدفع الأتاوة السنوية ،واستمر الحال على هذا المنوال إلي أن تولى السلطان محمد المنتصر بن محمد بن المنصور في الفترة الممتدة مابين عامي 1804 م -1814 م مقاليد الحكم في فزان وحينها رفض السلطان محمد الاستمرار في دفع الإتاوة السنوية إلي الإدارة العثمانية في طرابلس ،الأمر الذي دفع يوسف باشا القره مانلي إلي إرسال حملة عسكرية بقيادة محمد المكني للإطاحة بحكم أولاد محمد وضم فزان تحت حكمه المباشر (الأنصاري ، ..... ص 332) خاصة وان يوسف باشا كان يمر بأزمة مالية حيث كان محتاجا إلي المصادر المالية لدفع ديونه إلي التجار الأوربيين ،ولذلك كان المخرج الوحيد لديه هو التركيز على تجارة الصحراء ومن ثم قرر التخلص من دولة أولاد محمد كوسطاء ،حتى يستطيع الاستفراد بضرائب وريع فزان دون مشاركة احد، وقد وصلت هذه الحملة مرزق بعد سبعة عشر يوما تقريبا ، وبالرغم من أن هذه الحملة تعرضت إلي مقاومة عنيفة وقتال ضاري من قبل السلطان محمد المنتصر ،غير أن محمد المكني لجأ إلي حيلة استقطب بها إلي جانبه السلطان السابق أحمد الناصر الذي مكنه من الوصول إلى مرزق والاستيلاء عليها دون مقاومة تذكر ،وبناء على فرمان صادر من الباشا القره مانلي تم تنصيب أحمد الناصر حاكما على فزان بدلاً من عمه محمد المنتصر بن محمد المنصور ، وتشير بعض الكتابات إلي أن السلطان أحمد الناصر قام بسجن عمه ثم قتله بوحي من محمد المكني ،غير أن السلطان أحمد الناصر لم يلبث طويلا حيث قام المكني بسجنه ثم قتله بحجة أنه ارتكب جريمة قتل عمه محمد المنتصر ، وبمقتل السلطان أحمد الناصر أسدل الستار على دولة أولاد محمد في فزان ، بعد أن حلت بأفراد أسرتها نكبة كبيرة على يد محمد المكني، فقد لقي معظم أفرادها مصيرهم سوء بالقتل أو السجن ومن بقى منهم على قيد الحياة لاذا بالفرار خارج فزان طلبا للنجاة ، من هنا يمكن القول أن المحاولات التي قامت بها الدولة العثمانية من اجل ضم إقليم فزان إلي ولاية طرابلس الغرب هو العامل الرئيس والهام الذي عجل بنهاية حكم أسرة أولاد محمد الفاسي فزان(..)

الخلاصة

هذه الدراسة حاولت أن تكشف الغطاء وتحلل الغموض الذي يكتنف الحياة السياسية لإقليم فزان في عهد دولة أولاد محمد في الفترة الممتدة مابين عامي 1550م-1813م هذه القرون الثلاثة تقريبا شهدت مرحلة إرهاصات وتكوين دولة محلية ،وخلال هذه القرون –أيضا- واجهة هذه الدولة المحلية تحديات عديدة لعل أبرزها التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بها

إلى جانب الصراعات والحروب مع الدولة العثمانية المركزية في طرابلس الغرب وحلفائها داخل الإقليم.

وحاولنا في هذه الدراسة الغوص في جذور الحياة السياسية لدولة أولاد محمد الفاسي وردود فعلها إزاء هذه التحديات، وخاصة التي كان مصدرها من الشمال وتحديدا من الإدارة العثمانية في طرابلس الغرب، وقد تبين لنا من خلال الدراسة والتحليل أن ردود الفعل هذه كانت متعددة ومتباينة مابين الامتناع والمقاطعة والمقاومة المسلحة والانسحاب والهجرة إلى أطراف الصحراء والبلدان المجاورة لفزان إلي التعاون الاقتصادي والسياسي في أحيان أخرى

إلا أن هذه الدراسة قد توصلت إلي جملة من النتائج يمكن أبرازها في الأتي :-

- ✓ كانت الحياة السياسية في عهد دولة أولاد محمد في فزان تعتمد من الناحية الاقتصادية على جمع الضرائب وتجارة القوافل بين فزان وما يجاورها من أقاليم ودول أخرى ،ومن جمع الغنائم من الحروب التي كانت تحدث بين الفينه والأخرى، إلي جانب الإتاوات التي كانت تفرض على الأهالي وضرائب الغزو، أما من الناحية الإيديولوجية فإن هذه الحياة كانت تعتمد في الأساس الترويج لفكرة أن نسب هذه الأسرة (أولاد محمد) يعود إلي نسب النبي محمد (صلى الله عليه وسلم).
- ✓ مثلث ارض السودان الممتدة من تمبكتو وحتى السودان الحالية ،محطة عسكرية هامة لدعم سلاطين أولاد محمد فكانوا كلما نزل عليهم ضيم التجأوا إلى تلك المحطة ، والواقع أن هذه المنطقة لم يتوقف دعمها على الحماية فقط ، بل كانت تمد الإقليم بالدعم العسكري والاقتصادي ،خاصة عندما يتطلب الأمر استرجاع فزان من قبضة العثمانيين.
- ✓ استطاع سلاطين دولة أولاد محمد المحافظة على النسيج الاجتماعي بعد إقامة دولتهم فزان، حيث بقت الأرض والسلطة المحلية بأيدي القوى والعناصر الذين لهم تأثير اجتماعي مثل الأشراف والمرابطين والأسر الغنية والزعامات القبلية الأمر الذي أضفى الشرعية على سلطة حكام دولة أولاد محمد .
- ✓ السياسة العثمانية في صراعها مع دولة أولاد محمد فزان لم تبق على وتيرة واحدة طيلة الفترة الممتدة من عامي 1551م-1813م بل غالبا ما كانت تتغير، ويمكن حصرها في في مرحلتين أساسيتين :

المرحلة الأولى: والتي كانت ما بين 1551م 1711م تقريبا ، حاولت الدولة العثمانية أن تتعامل مع سلاطين دولة أولاد محمد بالاعتراف بنوع من الحكم الذاتي على إقليم فزان، مقابل أن يقوموا سلاطين دولة أولاد محمد بدفع الريع السنوي إلى الإدارة العثمانية المركزية في

طرابلس وبالتالي لم تبذل الدولة العثمانية أي محاولة جادة للقضاء عل حكم دولة أولاد محمد بفزان في هذه المرحلة انطلاقا من الاعتقاد بأن الخلافات الداخلية بين سلاطين الدولة الفاسية كفيلة بزعزعة أركانها وبالتالي نفوذها.

المرحلة الثانية: والتي امتدت مابين 1711م1813م وربما بعد ذلك فقد خضعت الحياة السياسية في فزان إلي صراعات وحروب دامية مابين سلاطين دولة أولاد محمد وبين الولاة العثمانيين القره مانلين، واستمر الحال على ذلك المنوال إلى أن تم القضاء نهائيا على دولة أولاد محمد ووقعت فزان بأكملها تحت الحكم القره مانلي مباشرة ،الأمر الذي ترتب عليه إحداث تغيرات سياسية في مقاليد الحكم بالمنطقة.

قائمة المراجع

أولا المراجع العربية

1- ابن غلبون ،التذكار فيمن ملك ماكان بها من أخبار.
2- احمد بك الأنصاري ،المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ،ج1طرابلس الغرب:مكتبة الفرجاني،(د.ت).
3- ترجمة طه فوزي،نحو فزان،القاهرة:مكتبة طايع،1976م،
4- جمال الدين الدناصوري، جغرافية فزان، دراسة في الجغرافية المنهجية الإقليمية،بنغازي:دار ليبيا للنشر ،والتوزيع،1976م.
5- جوان وتريوري، الملكية والنخبة السياسية في المغرب ،(ت)ماجد نعمه وعبود عطية ،المغرب :دار الوحدة العربية للنشر ،1982م،ط1 .
6- جون فرنسيس ليون ، من طرابلس إلي فزان، ترجمة مصطفى جودة،ليبيا-تونس،الدار العربية للكتاب،1976م.
7- حبيب وداعة الحسناوي،الأرض الماء النفوذ في واحات وادي الشاطي بفزان في عهد أولاد محمد،مجلة البحوث التاريخية ،العدد الأول،يناير ،1995م،طرابلس :مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية .
8- رجب نصير الأبيض، مدينة مرزق،تجارة القوافل الصحراوية خلال القرن التاسع عشر دراسة في التاريخ السياسي+++++،طرابلس :ط1.
9- رملاندو،تاريخ المغرب في القرن العشرين،(ت) نقولا زيادة ،بيروت:دار الثقافة ، 1963م.
10- رودولفو غرسياني، تطور النظام الإداري والقضائي في إقليم فزان خلال القرن التاسع عشر،رسالة ماجستير غير منشورة ،جامعة قاريونس، بنغازي ،2007م-2008م.
11- سليمان علي محمد اندين ،تطور النظام الإداري والقضائي في إقليم فزان،رسالة ماجستير غير منشورة،جامعة قاريونس،بنغازي:2007م-2008م.
12- عبدالعزيز طريح شرف،جغرافية ليبيا،القاهرة،(د.ن)
13- علي عبداللطيف احميدة، المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا، دراسة في الأصول الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لحركات وسياسات التواطؤ ومقاومة الاستعمار ،القاهرة :مركز دراسات الوحدة العربية ،1998،ط2 .
14- فريدريك هوفمان،(ت)مصطفى محمد اجعوده، الرحلة من القاهرة إلي مرزق عاصمة فزان 1776م، طرابلس: دار الفرجاني،1993م.
15- كولا فولايان، ليبيا أثناء حكم يوسف باشا القره مانلي (ب.ت)عبد القادر مصطفى المحيشي ،جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي ،1998م .

ثانيا: المراجع الأجنبية

1- El hesnawi habib wadaa ,fazzan under the rule of the awld mahmmad sebha the centre for African researches and stupies1990
2- https://Libyan.org.ly.25.8.2018-6.10pm